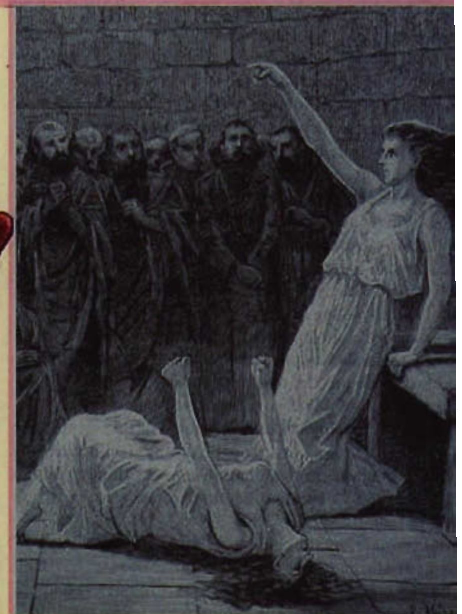








الغنوصيّة

أو

التيارات العرفانية
في القرون المسيحيّة الأولى

تأليف

الأب د. يوسف توما مرقس

الغنوصيّة
أو
التيارات العرفانية
في القرون المسيحيّة الأولى

تأليف

الأب د. يوسف توما مرقس

بغداد - العراق

٢٠٠٩

مقدّمة

الغنوصيّة كلمة يونانية تعني المعرفة، والغنوصيّ هو الذي يعرف، وقد اختصرها أحدُ أقطابها واسمه تيودوت (القرن ٢م)، بهذه الأسئلة: "من نحن؟ ماذا أصبحنا؟ أين نحن؟ أين أُلقيَ بنا؟ إلى أين نحن ذاهبون؟".

الغنوصيّة إذن تيار فكريّ، يرتكز على مفهوم المعرفة، وقد وصل أوجه في القرنين الثاني والثالث للميلاد في الإمبراطورية الرومانية خصوصًا. والغنوصية تعميق للميل المتأصّل في الإنسان الذي يبغي الحصول على المعرفة. وقد تأثّرت ديانات كثيرة بالغنوصيّة بشكل متفاوت، مباشرة وبقوّة: كالمانوية - التي ولدت في القرن الثالث في أواسط العراق (في بابل) على يد ماني (٢١٦-٢٧٣م) - والصابئة - المندائية (التي يعني إسمها بالسريانية الشرقيّة "مندا دهايي" أي معرفة الحياة)، وكذلك تأثر بها تيارات "القبالة" KABBALE اليهودية، التي يعدّها البعض شكلا من أشكال الغنوصيّة.

وإن كانت الغنوصيّة كلمة تاريخية، إلا أن التمييز في تياراتها لا يمكن استعماله كيفما اتفق. فقد درجت العادة بإطلاق هذا الاسم على جماعات كثيرة، ويعزى أول استعمال لهذا الإسم على الجماعات الغنوصية إلى العالم الإيطالي أوغو بيانكي Ugo Bianchi في مؤتمر مسّينا في ١٣-١٨ نيسان عام ١٩٦٦، لكننا قد نجد، قبل هذا التاريخ، هذه التسمية في كتابات قديمة بصيغ قريبة[1].

يمكن القول إنّ قلق المعرفة والبحث عن الأصول، هما محركا كل فكر غنوصيّ، هذا القلق في أساس التشاؤم الذي ميّزه على الدوام. فالغنوصيّ يعدّ العالم فخًا نصبته القوى الشريرة، وإنه هو الوحيد الذي يمكنه من التملص من هذا الكون، وذلك بفضل "قدحة" المعرفة، أي تلك الشرارة الموجودة في أعماق الإنسان السحيقة. لكن الغنوصيّة (المعرفة الحقيقيّة) لا تعطى لجميع الناس، لأنها نعمة إلهية مخصّصة للمُختارين فقط. والله يعطي هؤلاء أن يتّحدوا به، وأن يسترجعوا تلك المعرفة الحقيقية.

في نص غنوصيّ عنوانه، اللوجين Allogene ويعني الإسم " الغريب "، اكتشف في مجموعة قرية (نجع حمادي)، عرض واضح لهذا الشكل من التفكير، يقول: إنّ الغنوصيّة كشف قام به ملاك إسمه يوئيل لتلميذ مطّلع (أو كما يقال في تعابير المذاهب الإشراقية " المريد "): " قال لي يوئيل، لا يستطيع الكل أن يسمع هذه الكلمات يا أللوجين (يا غريب)، أما أنت فقد لبستَ كلَّ شيء واتّشحت به، بقدرة أبي، لكي تتمكن أن تميّز ما هو صعب على التمييز والمعرفة، وما هو غير قابل للمعرفة لعامّة الناس. ذلك كي تصعد نحو ما هو ملكٌ لكَ " . (نجع حمادي ١١، ٣٥٠ من ٢١ إلى ٤٣).

إن محتوى هذه الكشوفات والمشاركة في المعرفة، هما سيحوّلان التلميذ المريد ويجعلانه إلهيًا. فيقول " الغريب " : " سأعود إلى ذاتي، وبعد أن أتأمل النور الذي حولي، والخيرَ الذي فيَّ أنا، وهكذا سأصبح إلهيًا " (المصدر نفسه 52 §، ١٠ - ١٢). نفهم حالا ما في الغنوصيّة من ثقة وادّعاء، أصبحا مصدر إزعاج لخصومهم الكثيرين، وخصوصًا لسلطات الكنيسة في ذلك الزمان، فالكنيسة عَدّت المسيحيّة ديانة مفتوحة للجميع، والخلاص يكرز به وبالإنجيل في كل مكان وهو معروض مفتوح للكل. أما الديانة الغنوصيّة فهي عكس ذلك، إنها ديانة مخصّصة للمختارين فقط، ولا يمكن للإنسان أن يقرر أن يكون غنوصيًا، الإنسان هو إما غنوصيّ أو هو لا شيء، ولا يوجَد من الناحية النظرية، إهتداء إلى الغنوصيّة.

لقد وضع آباء الكنيسة جلَّ همّهم في الردّ على فلاسفة الغنوصيّة ومفكريها ولاهوتييها، الذين عدّوا أنفسهم ورثة لكلمات يسوع الخفيّة، فاعتقدوا أنهم وحدهم يمتلكون تقاليد سريّة خفيّة. وكان الغنوصيّون قد وضعوا كتبًا ومؤلفات عديدة، فتساءلوا فيها حول العلاقات بين البشر، وعلاقات هؤلاء مع العالم ومع الله. وغاصوا في أساطير معقّدة ومغرية لبسطاء الناس، وقاموا بكتابة مأساة (دراما) الخلق، وأعطوا تفاسير فيها الكثير من القلق، حول ما جاء في الكتاب المقدّس في سِفر التكوين،

وقالوا عن إله العهد القديم إنه إله كاذب وغير عادل ومخادع، لأنه ربط الإنسان بسلاسل ثقيلة، أي قيّده بوجود ينسيه أصله الإلهي. لكن الإله الحقيقي لم يخلق شيئًا، وعلى العكس من ذلك، يبقى الإله الحقيقي وحيدًا في بحر من نور. من هنا جاء احتقارهم للعالم والخلق وأدّى بهم ذلك الإحتقار إلى التمسّك بأخلاقية مفرطة في التجرّد والزهد ورفض الزواج والإنجاب، وهذا أبرز ما يثير الإنتباه عندهم. لكنهم لم يستطيعوا قط الذهاب بتلك الأفكار إلى أبعادها الحقيقية القصوى، خوفًا من الإنقراض بعد بضعة أجيال، ولئلا يختفي الإيمان الغنوصيّ، لجأوا إلى فتاوى معقّدة جمعت بين كسب الأتباع عن طريق التبشير، وبين الشعور بالإنتماء النخبوي، أي إن بعضهم فقط يكونون نخبة وهم فوق الجميع.

كانت الجماعات الغنوصيّة تعيش على هامش الكنيسة والدولة، لهذا قام كلاهما باضطهاد الغنوصيّين، حتى اختفوا، مع ذلك، تخفّى البعض منهم وبقوا تحت أغطية عديدة وصعبة على الكشف، كما بقيت أفكارهم ودامت، خصوصًا لدى كل هؤلاء الكتّاب المشتاقين إلى تحقيق ما هو مطلق، وجعل الرغبة في التوصل إلى المعرفة القصوى المطلقة النقيّة واقعًا، فهي التي تحافظ على أسمى القيم. لذلك يمكننا، في عالم اليوم، أن نستقرىء أشكالا متنوعة من الغنوصيّة.

لم يقم، في العالم العربي من اهتم بالغنوصيّة، ما عدا ترجمة كتاب " الغنوصيّة في الإسلام" للمستشرق هاينس هالم، الألماني[٢]، كما خصص فراس السواح في كتابه " الوجه الآخر للمسيح – موقف يسوع من اليهود واليهودية وإله العهد القديم ومقدمة في المسيحية الغنوصية (دمشق، سوريا ٢٠٠٤ من ص ٥٩-٩٦)" ٤٠ صفحة عن الغنوصيين فيه وصدر مؤخرا كتاب عن الغنوصية للخوري بولس الفغالي[٣].

سنقوم في هذه الدراسة باستعراض سريع لكتابات تركها لنا الغنوصيّون أنفسهم، وقد كنت شخصيًا قد انكببتُ على بعض نصوصهم، بين عامي ١٩٧٦-١٩٧٨ في ستراسبورغ (فرنسا)، في نطاق بحث في كتاب (المراقي) السرياني، الذي قيل عنه إن

فيه تـأثيرات غنـوصيّـة، ممـا يدل على الأثـر الـذي كـان لهـذه الأفكـار والكتـابـات. لكن الباحثين في تلك السنوات كانوا يجهلون جميع محتويات مكتبة نجع حمادي المصريّة، إذ لم تكن ترجماتها قد اكتملت بعد. وقد أسهمتُ، مع فريق عمل على إنجيلَي فيليب وتوما المنحولَين، وهما من أهم ما كشفته مكتبة تلك القرية الصعيديّة.

نجد التعاليم الغنوصيّة بيّنة واضحة مباشرة في هذه الكتب. لكن، لا يكفي أن يدرس المرء موقع الغنوصيّين في تاريخ الفكر القديم، وخصوصًا في فترة انحلال وسقوط الوثنية ومعها الإمبراطورية الرومانية، في القرنين الأولَين من العصر المسيحي؛ إذ من الضروريّ أن ندرس أيضًا المجتمعات التي ترعرعت وعاشت فيها الغنوصيّة، مما يجعل دراسة هذه البدع صعبة، فالمعلومات التاريخية والإجتماعية عن الغنوصيّين كانت حتى وقت قريب قليلة نسبيًا، مع ذلك برغم قلتها، هناك أشياء كثيرة لم تنشر بعد، حتى باللغات الغربية. فما عدا الكتابات الغنوصيّة، هناك أيضًا ما كتبه خصوم الغنوصيّة، خصوصًا آباء الكنيسة المجادِلون المدافعون apologistes. ومن الآن، ينبغي أن نقول: علينا أن نتعامل بفطنة وحذر مع كتابات خصومهم، فالخصومة والعداوة بين المسيحية والغنوصيّة، قد تجعلان المعلومات المنقولة خاطئة أو مبالغًا فيها، أي في تفسير ما أراد أن يقوله الغنوصيّون. وكذلك لا ينبغي أن نكتفي بما عندنا من مصادر، فالغنوصيّة تشبه الأخطبوط، كثيرة الأذرع، في امتدادها في الزمن والحيّز الجغرافي، أو – كما قال القديس إبيفانس، أشهر من تطرق إليهم من آباء الكنيسة الدفاعيين: " الغنوصيّة كتنّين له ألف رأس، إذا قطعتَ واحدًا أو عشرة، تبقى رؤوس أخرى " . لذلك لم يتمكن، حتى الآن، أحد أن يدّعي أنه قام بدراسة شاملة عن الغنوصيّة. مع ذلك، نأمل أن تكون هذه الدراسة الصغيرة لبنة في هذا البناء وبداية للتطلع لفهم الغنوصيّين وزمانهم وهي حقبة مهمّة من تاريخ العالم.

كلمات غنوصيّة

ثنوية = Dualisme

الفاطر، الخالق الشرير = DEMIURGE

النَفَس الروحي = PNEUMA

الأيونات Eons هو الإسم الذي أطلقه فالنتين على الموجودات أو القوى الروحانية التي توجد بعد الله، وهي ذكور وإناث، وعددها ٣٣ كرمز إلى عمر المسيح، ومنها ما هو خيّر كالحكمة (صوفيا)، ومنها ما هو ماكر كيهوه، إبن صوفيا وإله اليهود.

الأركونات: ولاة أو سادة هذا العالم من أرواح وغيرها.

الملء: Pleroma يقصد به العالم السماوي، الذي يتكوّن مجموع الأيونات والتي يبلغه الغنوصيّ في نهاية مطاف حياته الأرضيّة. الملكوت مرادف آخر للملء لديهم.

ثيليتوس Theletos الحدّ، باليونانيّة، رفيقٌ لصوفيا (الحكمة) في النظام الفالنتيني.

يلداباعوت Yaldabaoth إسم جاء في الكتب الغنوصيّة المتأثرة باليهوديّة أطلق على الإله الفاطر DEMURGE.

بعض التواريخ المهمّة

حوالي ٨٥م ميلاد مرقيون Marcion في سينوب Sinope بلاد البنط Pont وسط تركيا حاليًا).

حوالي ١٠٠م وفاة يوحنا الرسول.

حوالي ١٠٠م يبدأ الكساي يكرز بغنوصيّة يهودية - مسيحية (في السنة الثالثة لملك القيصر تراجان).

حوالي ١٠٠ ولادة فالنتين في مصر.

بين ١٢٠-١٥٠ بازيليد الغنوصي يتنقّل بين سوريا ومصر.

١٣٠م ولادة إيريناوس (أسقف مدينة ليون الفرنسية)، في إزمير وتوفي في ليون في ٢٠٢م.

١٣٧ - ١٣٨ مرقيون يتكلم عن "وحيه الأول". انتشار المرقيونية في آسيا الصغرى (غرب تركيا الحالية). ينفصل مرقيون عن الكنيسة الجامعة في عام ١٤٤م.

١٣٥-١٦٠ فالنتين في روما: إنتشار الغنوصية الفالنتينيّة.

حوالي ١٥٤م ولادة برديصان في منطقة أوسروين Osrhoène قرب الرها.

١٦٧ - ١٦٨م تسلّم برديصان "الوحي" الأوّل.

١٧٢م بعد ظهور الحركة المونتانية (سنة ١٥٦م) تصل قمّة انتشارها في آسيا الصغرى وتصل إلى روما.

١٧٥-١٨٠م ططيانس يؤلف كتابه الدياتسرون (١*٤) أي جمع الأناجيل الأربعة في إنجيل واحد.

٢٠٥-٢٧٠م الفيلسوف أفلوطين الإسكندري.

١٤/٤/٢١٦ ولادة ماني في بابل.

حوالي ٢٢٠ فاتك والد ماني ينتمي إلى بدعة المغتسلة الكسائيين.

١/٤/٢٢٨ ماني يستلم "الوحي" الأول (وعمره ١٣ سنة).

٣١٥ - ٤٠٣م القديس إبيفانس السلاميني آخر كبار مناهضي الغنوصيّة.

القسم الأول

مصادر معرفتنا بالغنوصية والغنوصيين

الغنوصيّة حركة دينية وفلسفية قامت في والشرق الأوسط وامتدت إلى أوربا ازدهرت من القرن الأول الميلادي وانقرضت في القرن السابع. إعتمدت " المعرفة" السرية أو العرفان، وتأثرت بها الديانات التي عاصرتها وحاولت أن تؤثر بها. إعتقدَ الغنوصيّون أن الخلاص يتحقق بالمعرفة الخاصّة gnosis. وآمنوا بإله مجهولٍ وبعيدٍ، لكنهم رأوا هذا العالم شريّرًا، لم يخلقه الله بل خلقه إله أدنى منه يدعى الفاطر Demiurge، وهو يحُكمه بالأرواحِ الشّريّرة.

كما يعَلّمَ الغنوصيّون عموماً أنّهم مختارون، فعِنْدَهُم شرارةُ قدسيةُ سُجِنَتْ في جسمهم الماديِ، لكنها قادرة أن تتحرّر من خلال تلك المعرفة الخاصة، وهذه الشّرارةِ القدسيةِ ستخلصهم من العالم الشّرّير وتجعلهم يعبرون إلى اللهِ الحقيقي. لكن الغنوصيّة أخذت من العديد من الفلسفات والأديانِ في العالمِ القديمِ، كما جمعت الكثير من الأساطير ممّا يجعلها أحيانًا كثيرة صعبة معقدة على الفهم.

وسرعان ما أصاب الغنوصيّين داء التفرع والإنقسام، فتفرقوا إلى أديان مختلفة، فكان منهم من ادعى المسيحيّة لكنّ مسيحهم كان مختلفًا جدًا عن " مسيح" الكنائس المسيحية الأخرى، فقال الغنوصيون أن المسيح كَانَ رسولا إلهيًا جَلبَ معرفة خاصة سريّة، لم يطلع عليها باقي المسيحيين العاديين وإنما فقط تلاميذ معينين. وادّعوا أنّ المسيح سَكنَ جسمًا إنسانيًا بشكل مؤقت. وأنكروا موته على الصّليبِ وقيامته كما جاء في " العهد الجديد" . لذا حذّر منهم آباء الكنيسة كالقدّيسِ إيريناوس، الذي هَاجمَهم متهمًا إياهم أنهم بدعًا. لكن تلك الهجماتِ دفعت الغنوصيّة إلى العزلة فقويت فيها العناصرَ الوثنيّة، إلى جانب ازدياد التطرف لديهم في مواقف جعلت الجميع يحاربهم حتى انقرضوا.

نعرف الغنوصيّين من مصدرين: مِمّا نقله عنهم خصومُهم في النصوص، وهي كثيرة، ومِمّا تركوه هم من نصوص، وهي قليلة. ولولا اكتشافات آثارية وبعض مخطوطات قام بعض السياح والرحالة باقتنائها في الشرق، لضاعت هذه المصادر الأخيرة أيضًا.

المصادر غير المباشرة:

نجد أول ذكر للغنوصيّين في العهد الجديد، حين يذكر سفر أعمال الرسل سمعان الساحر الذي كان يعظ في السامرة، ويطلق على نفسه إسم "قدرة الله العظمى". ولكن حتى وإن لم يُسَمّه العهد الجديد "غنوصيًا"، إلا أن سفر أعمال الرسل يركّز في خطر أعماله السحرية. أمّا المدافعون عن الإيمان، فيذكرون سمعان الساحر كزعيم لهذا التيار الفكري، وكمنطلق لمجموعة كبيرة من البدع تفشّت في القرون المسيحية الأولى. كما يشير سفر الرؤيا بتعابير قاسية إلى الشماس (نيقولاوس) الذي سلّمه الرسل سلطة ما، لكنه انحرف عن الطريق السوي، ويذكره آباء الكنيسة الأوائل كزعيم بدعة أطلقوا عليها إسم "النيقولاويين"، وهي بدعة غنوصيّة. أما القديس بولس فيحذّر، في الرسالة الأولى إلى طيموثاوس، من خطر "المعرفة الكاذبة" مصدر الانقسامات في الجماعة المسيحية.

إعتبارًا من نهاية القرن الثاني للميلاد صارت ردود فعل الكنيسة ضد الغنوصيّة أكثر تنظيمًا تحت شكل أدبي خاص، أطلق عليها إسم الدفاعات Apologétiques، وهي كتبٌ علمية ودقيقة، لكنها غالبًا ما تنتقد وتحكم بقسوة على الغنوصيّة وتعدّها تفسيرًا كاذبًا ومنحرفًا للإيمان المسيحي، وقد خصص الآباء واللاهوتيون والرعاة جهدهم وكلّ طاقاتهم لدحض دقيق جدًا، معتمدين على مصادر تلك المعرفة وعقائدها، ويمكننا أن نقول: إن آباء الكنيسة كانوا مطّلعين على كتب الغنوصيّين التي ضاعت، وصار الآن في إمكاننا أن نقارن بينها وبين ما قاله آباء الكنيسة عنهم بفضل مكتشفات نجع حمادي. كان الغنوصيّون يقولون إنهم المسيحيون الحقيقيون وحدهم، وإنهم

ورثة المعرفة العليا التي أَسرّ بها المسيح بعضَ تلاميذه المقرّبين، وهذا الوعي النُخبَوي والمتميّز أثار حفيظة آباء الكنيسة ضدّهم. وجعل هذا الإدعاء كل الكنيسة تلتئم حول كرسيّ بطرس، لا بل حدثت ضد الغنوصيّين إضطهادات كانت أحيانًا تصل إلى مستوى العنف الدموي مارسته سلطات الإمبراطورية الرومانية التي قبِلت المسيحية في عام ٣١٣م، فاضطهِدَت الجماعات الغنوصيّة التي كانت موزّعة في أرجاء الإمبراطورية كافة، فأتلفوا كتاباتهم، وقتلوا أتباعهم أو أجبروهم على تغيير مذهبهم بالقوّة.

الدفاعات الكبرى:

لدينا ثلاث مجموعات من الكتابات ضد الغنوصيّين إمتدّت على مدى ثلاثة قرون، تعود إلى إيريناوس أسقف ليون (١٣٠-٢٠٢)، وهيبوليطس الذي عاش في روما، وإبيفانس (٣١٥ - ٤٠٣م) أسقف سلامينا (وكانت عاصمة جزيرة قبرص القديمة). هؤلاء الثلاثة لم يكن لهم عدوّ سوى الغنوصيّة.

أ- إيريناوس

أسقف مدينة ليون الفرنسية، ولد في إزمير نحو عام ١٣٠م وتوفي في ليون في ٢٠٢م، وأصبح أسقفًا على مدينة ليون حوالي سنة ١٧٧م. يوناني، كان تلميذا للقديس بوليكاربوس، وقد سكن روما حيث التقى بسادة الفكر الغنوصيّ الذين كانوا يروّجون لتعاليمهم في روما. كتب إيريناوس باللغة اليونانية كتابًا ضخمًا ضد التعاليم الغنوصيّة أسماه "دحض الغنوصيّة التي تحمل إسمًا كاذبًا"، وكتب هذا الكتاب بين عامي ١٨٠-١٨٥، وقد ضاع الكتاب الأصلي، ولكن ترجمة لاتينية للكتاب بقيت، ويوجد لدينا مقاطع من هذا الكتاب بالأرمنية. وإيريناوس قبل كل شيء أسقف، أي يهمّه الحفاظ على وحدة الكنيسة وعلى إيمان جماعته في مدينة ليون، وكان واعيًا خطرَ الغنوصيّة الوافدة من الشرق ومن الغرب أيضًا. أراد أن يكتب كتابًا شاملاً قويًا، وكان في

نيته أن يعطي مؤمنيه وسيلة للدفاع ضد تعاليمهم المتغلغلة في بلاده. إن غاية إيريناوس مزدوجة كما يقول في كتابه: أولا دحض نظريات الغنوصيّين، وثانيًا دحض انتقادهم آرائه هو، وهو في ذلك يعتمد دائمًا على الكتاب المقدس، ويبيّن التناغم والتوازن العميق الموجود بين العهدَين القديم والجديد، وهذا التناغم ما يرفضه الغنوصيّون، فهم يرون في العهد القديم كتابًا لإله الشر (الفاطر) الذي يختلف عن إله العهد الجديد الذي هو الله الطيّب والمنير. ويستعرض إيريناوس مختلف الكتّاب الغنوصيّين الأحياء في زمانه مثل بطليموس، فالنتين، مرقس الساحر. وهذا الأخير كان يقوم بجمع أتباع له في منطقة ليون. ويرسم إيريناوس صورة واضحة عن امتداد الفكر الغنوصيّ ويحدّد مصادرهم وكتّابهم من القرن الأول، أي طلائع الغنوصيّين حتى قبل أن يُطلَق عليهم هذا الإسم: من أمثال سمعان الساحر وميناندار وساترنين، ويرسم شكل كل بدعة وجماعة تنتمي إلى كلّ من هؤلاء المعلّمين، ويحدد أسماءها ويذكر الفالنتينيين نسبة إلى فالنتين، والمرقسيين نسبة إلى مرقس الساحر، أو يذكر شخصيات خرافية يتكلم عنها الغنوصيّون فيسمّي البدعة بإسم تلك الشخصيات كالتي تعبُد (باربيلو) ويسمّيهم الباربيلوتيين، أو عَبَدة الحيّة (أوفيس باليونانيّة) ويسمّيهم الأوفيتيين أو أتباع الحية. لكننا نعتقد أن هذه التسميات تبقى شكليّة، إذ كان من عادة آباء الكنيسة أن يخترعوا أسماء يطلقونها على البدع المنتشرة كي يسخروا منها ويحتقروها.

ب- هيبوليطس الروماني

كتب كتابا عنوانه "دحض كل الهرطقات"، باليونانية في بداية القرن الثالث. لكن هناك شكًا في صحّة أن يكون هيبوليطس هو مؤلف هذا الكتاب، إذ يقال إن هيبوليطس شخص إدّعى البابوية، وقام بتأليف هذا الكتاب واضعًا فيه قائمة بالتعاليم الخاطئة، فجاء الكتاب في عشرة أجزاء لم يصلنا منه إلا سبعة فقط، تُذكر فيها ٣٣ هرطقة و ٣٠ منها غنوصيّة.

لقد شدّد إيريناوس في دحض تفسير الغنوصيّين الخاطئ لمعطيات الكتاب المقدس، إذ بنوا على تلك التفاسير الخاطئة أساطيرهم. أما هيبوليطس فركّز في لجوء الغنوصيّين إلى الفكر اليوناني لبناء نظريّاتهم، كالفكرة الأساسية التي قادت العقيدة الغنوصيّة في تأثيرها الخطير على الفلسفة اليونانية وعلى ديانات الأسرار السائدة آنذاك وعلى علوم الفلك. أراد هيبوليطس أن يربط بين الفلسفة اليونانية وبين نصوص الغنوصيّين فرأى تأثّر كتابات سمعان الساحر، في القرن الأول الميلادي، بكتاب هرقليطس من القرن السادس ق.م، فيقول إن سمعان الساحر إعتمد على ذلك الفيلسوف إعتمادًا واضحًا. أما الغنوصيّ بازليد، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي، فقد استقى من أرسطو (٣٨٥-٣٢٢ ق.م.) وهكذا دواليك.

لكن هذا الربط ليس صحيحًا في الغالب، برغم إرتباط الفكر الغنوصيّ بالفلسفة اليونانية، لأن التأثير المسيحي على الغنوصيّة كان أقوى. إلا أن هيبوليطس أراد القول إن الغنوصيّين وثنيّون وملحدون وليس لديهم لاهوت. مع ذلك هيبوليطس أقل قوّة وحجة لاهوتية من إيريناوس برغم أهمية ما تركه لنا من كتابات.

ج- إبيفانس السلاميني

ذكر هيبوليطس ٣٠ بدعة غنوصيّة، لكن بعده بمئة سنة جاء إبيفانس (٣١٥-٤٠٣م)، فذكر ٨٤ بدعة في كتابه المسمّى "البَناريون" (صندوق الأدوية). وهذا الرقم لا يعدو كونه رمزيًا، فسفر نشيد الأناشيد يقول إن العريس يمتلك ٨٤ جارية، لكن لديه عروسة واحدة فقط وهي رمز للكنيسة. وهي التي تحظى بحب عريسها المسيح. ولهذا فكل هذه التعاليم الخاطئة تصادم الكنيسة/العروس وتغار منها. إنّ مقارنة إبيفانس إذن أسلوب بلاغيّ. فيقول إنّ البدع الغنوصيّة هي مثل الحية السامّة، ومثل التنين، ولهذا أطلق على كتابه إسم "بَناريون" (صندوق الأدوية). والأطباء يحملون هذا الصندوق معهم حيثما ذهبوا، والأدوية التي يحتويها هي ترياق

ضد لدغات هذه الحيّات التي هي تعاليم الغنوصيّين. إبيفانس بارع في السخرية والنقد اللاذع، ولغته بتّارة كالسيف، ومنطقه المتماسك يتيح له أن يحتقر نظريات خصومه، وغالباً ما يقدّمها كسخافات وجنون وأكاذيب، بل حتى كمؤلفات الشيطان. ينتقد إبيفانس آراء الغنوصيّين لكنّه ينتقد بخاصّة أخلاقهم.

لقد كان لأسقف سلامينا قابلية عالِم في الأجناس البشرية، فالبناريون (صندوق الأدوية) مليء بالتقارير حول ممارسات وعادات الغنوصيّين الذين التقاهم خلال سفراته إلى مصر. كان يندّد بمختلف الفرق، ولم يكتفِ بذلك بل حصل على قرارات حكومية بطردها من المدن، ووظّف كل ذكائه وأسلحته البلاغية في تحريض الغالبية المتديّنة ضد جماعات البدع تلك التي لم تكن سوى أقليات هامشيّة، لكنّ عملها في الخفاء كان مروّعًا. لذا لجأ إبيفانس إلى استعمال إنتقاد الذين سبقوه ضدّ الغنوصيّين، بل وذكر حتى الكتابات الوثنية، وقال إن للغنوصيّين أخلاقًا كالوثنيين مثل التسيّب الجنسي والأنثروبولوجي مثلا. مع ذلك، يتشكك الباحثون في بعض انتقاداته وبعض ما استشهد به من الكتابات الغنوصيّة، وليسوا متأكدين إن كانت الانحرافات الأخلاقية صحيحة. فإبيفانس يميل إلى بعض التعقيد، وبرغم أنه يكتفي بوصف ما رآه، إلا أنّه يتلذذ في سرد قصص الإنحرافات والعنف والانحلال ويخلط بينها. إنّه في الحقيقة كاتب يحبّ الإثارة ويلاحق طريدته. وذلك في فترة القرن الرابع، أي بعد تحرّر الكنيسة حين لم يكن الغنوصيّون يشكّلون أيّ خطرٍ على الكنيسة. على كل حال إنّ كتاب " البناريون" (صندوق الأدوية) يبقى ذا فائدة كبيرة، لأنه ينفرد بذكر نصوص غنوصيّة عديدة لولاه لما اطلعنا عليها.

هناك كتّاب آخرون خصّصوا جزءًا من مؤلفاتهم لمحاربة الغنوصيّة. نذكر مثلا ترتليانس (١٦٠م-٢٢٠م) وهو محام وثني من قرطاجة، إهتدى إلى المسيحية وكتب باللاتينية كتابات ضد الهراطقة. وكذلك نذكر كليمنضس الإسكندري الذي تعكس كتاباته انصهارًا وتوافقًا بين الفكر المسيحي والحكمة اليونانية، ونقل لنا

صفحات من الكاتب الغنوصيّ فالنتين وبازليد وايزيدور وكاربوكرات. ولدينا اوريجانس المثقّف والمفكر الكبير من مدرسة الإسكندرية بشكل خاص الذي يستعرض في كتابه " تفسير إنجيل يوحنا " كل أقوال الغنوصيّ هيراكيون بشكل مفصّل ثم يدحضها واحدًا واحدًا.

لم يكن آباء الكنيسة وحدهم من انتقدوا الغنوصيّين، فهناك فلاسفة قاموا بذلك أيضًا، مثل أفلوطين (٢٠٥-٢٧٠م)، الذي خصّص للمسألة الغنوصيّة الكتاب الثاني من مجموعته الإنياد (Ennéades أي الكتب التسعة)، ويُعَدّ هذا الفيلسوف رئيس الفكر الأفلاطوني الجديد، وهو لم يعجبه خلط الغنوصيّين بين الأفكار الفلسفية والأساطير، ولا ممارساتهم الطقسية. هناك أيضًا فرفوريوس الصوري (٢٣٣-٣٠٥ م)، الذي يقاسم معلّمه أفلوطين مواقفه، وقد كتب فرفوريوس حياة أفلوطين، وذكر أسفارًا رؤيوية غنوصيّة كانت منتشرة بين الجماعات الفلسفية في عصره، وقد أكّدت هذه المعلومات اكتشافات مجموعة نجع حمادي.

واختصارًا نقول: إن هناك سؤالين يمكن لآباء الكنيسة طرحهما:

- لماذا ثار آباء الكنيسة ضد الغنوصيّين؟
- وهل يمكننا أن نثق بالمعلومات التي أوردوها بجدالاتهم؟

إن آباء الكنيسة، الذين كانوا في الغالب أساقفة ومسؤولين عن الجماعات المسيحية، شعروا بخطورة هذه التعاليم الغنوصيّة المغرية لأنها مبنية على ادّعاء معرفة شخصية بالإله، هذه المعرفة كانت تستغني عن المؤسسات الكنسيّة، وكانت تبدو ذات قيمة لاهوتيّة، خصوصًا لدى بعض المعلمين الغنوصيّين، الذين كانوا سبّاقين في صياغة اللاهوت بين المسيحيين الأوائل. من جهة أخرى، كان التعليم الغنوصيّ يجتذب الوثنيين المثقفين الذين هرعوا إلى الدخول في المسيحية بلا أن يتعمّقوا فيها، وكانت هذه التعاليم تُعجِب أيضًا المسيحيين من عامة الشعب الذين كانوا يبحثون عن ديانة نخبة مغلقة.

بصورة عامة يمكننا أن نقول إن المعلومات التي يعطيها آباء الكنيسة عن الفكر الغنوصيّ جديرة بالثقة، لكن تعرّضهم لأخلاق الغنوصيّين مشكوك فيه، فالإشاعات المغرضة كانت شيئًا عاديًا في أسلوب دحضهم لتلك التعاليم، ولم يكونوا منصفين في هذه النقطة دائما، فدافعهم كان خوفهم من خطورة خصومهم، وما انتشار الغنوصيّة الكبير في أنحاء الإمبراطورية كافة، بل وحتى بين الجماعات المسيحيّة، إلا دليل على صحّة قلق آباء الكنيسة.

النصوص الغنوصيّة المباشرة

هناك كتابات ومصادر مباشرة ألّفها الغنوصيّون أنفسهم، وكُتبت في الغالب باليونانية، ولكن قسمًا كبيرًا منها حُفظ بالقُبطية. ويمكننا أن نقسم تلك المصادر إلى قسمين:

أولا بعض المخطوطات التي اكتشفت بين القرنين ١٧ - ١٩ ثم الاكتشاف المثير الذي تمّ سنة ١٩٤٥ في صعيد مصر، حين اكتشفوا مكتبة غنوصيّة كاملة.

أ- مخطوطات لندن وأكسفورد وبرلين:

هي مخطوطات إشتراها رحّالة وحُفظت في المتحف البريطاني في لندن، أو في اكسفورد في Bodleian Library وفي مجموعة التحف المصريّة التي في المتحف الألماني في برلين. وهذه المخطوطات التي تشبه الدفاتر Codex، مكتوبة على الرق (جلد الغزال)، أو على ورق البردي وهي مكتوبة على وجه الصفحة وقفاها، وهي مجلدة وصغيرة الحجم، ويبدو أنها أقدم أشكال الكتب التي استعملها المسيحيون. فاليهود كانوا يستعملون اللفافات الطويلة لأسفار الكتاب المقدس.

إشترى مخطوطة لندن، في عام ١٧٥٠، شخص يدعى أسكيو Askew وهو طبيب كان يحب جمع الآثار المصريّة. تحتوي هذه المخطوطة على ١٧٨ ورقة (أي ٣٥٦

صفحة). تتحدّث عن الحوار السرّي بين يسوع ومريم المجدلية والرسل. وبما أن العنوان ضاع أطلقوا عليها اسم (بيستيس صوفيا)، وهو اسم كائن أنثوي يتكلم عنها المخطوط. يعود تاريخ هذا المخطوط إلى القرن الرابع وهو اليوم في المتحف البريطاني.

أما المخطوط الأكسفوردي، فإننا نعرف أصله - فقد اشتراه ج. بروس Bruce وهو رحّالة اسكتلندي في سنة ١٧٧٣ من مدينة طيبة في صعيد مصر، والمخطوط من ورق البردي ٧٨ ورقة (١٥٦ صفحة)، تالف يحتوي على موضوعين: الأوّل تعليم يُنسب إلى يسوع، والثاني تأمّلات في الإله المجهول. عنوان النص الأول في نهاية القسم الأول هو: "الكتاب الإشراقي الكبير" le livre du grand traité initiatique، ترجمه للفرنسية ميشيل تارديو M. Tardieu واسمه المنتشر عموما هو "سِفرا ييهوو" Ie-hou. أما الكتاب الثاني من هذا المخطوط، فمحفوظ تحت عنوان "الطوبوغرافية السماوية".

أما مخطوطة برلين التي تحمل رقم ٨٥٠٢، فهي من صعيد مصر، اكتشفها سنة ١٩٠٠ كارل شميت وقام بدراستها بشكل جيّد، وفهم هذا العالِم منذ البداية أهميتها للتقدّم في فهم أعمق للغنوصيّة. إنها تحوي أربعة مجموعات من أقوال نُسبت إلى يسوع على أنه كشفها لتلاميذه، وقسم منها خصّ به مريم المجدلية التي تحتل لدى الغنوصيّين مكانة كبيرة. وإن كان هذا المخطوط، كما هو، يعود إلى نهاية القرن الرابع الميلادي، وبداية القرن الخامس، فنصوصه قد تعود إلى القرن الثاني الميلادي، بل يمكننا أن نعدّها من أقدم الكتابات الغنوصيّة. أما عناوين فصولها فهي:

- الإنجيل بحسب مريم المجدلية[4].
- كتاب الأسرار.
- كتاب يوحنا.
- حكمة يسوع.
- أعمال بطرس.

ب- مكتبة نجع حمادي

يُعَدّ اكتشاف هذه المكتبة من أهمّ اكتشافات عصرنا، إذ جعلتنا ندخل مباشرة إلى نصوص الغنوصيّين. هذه النصوص تشكّل مجموعة واحدة متماسكة، إذ تحوي على مثال واحد للحياة وموقف واحد رافض للعالم والعلاقة معه، وهدف واحد لا يتحقّق إلا بالمعرفة. ولم يصلنا من الزمان القديم، إلا نادرًا، مثل هذا العدد الكبير من الكتابات. ويمكننا أن نقول إن أهمية هذه الاكتشافات قد تعادل أهميّة اكتشافات البحر الميت قرب خربة قمران في عام ١٩٤٧، فنجع حمادي ألقت ضوءًا جديدًا وغير متوقع على جانب من جوانب العالم القديم الذي كنا نجهل الكثير عنه.

- الإكتشاف

في كانون الأول ١٩٤٥، وضع فلاّحون من قرية في صعيد مصر يدهم مصادفة على جرّة مختومة ومدفونة في مغارة محفورةٍ في جبل الطريف، واسم المكان (نجع حمادي) بالقرب من قرية على النيل كانت تُسمى في القديم (خينو بوسكيون). يبلغ ارتفاع الجرّة حوالي متر، وقد بدت لهم قديمة جدًا، فكسروها لكي يروا ما في داخلها من ذهب أو من مواد كريمة، لكنها كانت تحتوي على مخطوطات قبطيّة قديمة وكثيرة.

إن قصة هذا الاكتشاف أصبحت موضوع جدل ونقاش كبير وتحولت هي أيضًا إلى أسطورة.

قام الباحثون بطرح السؤال مرات عديدة على الفلاحين وعوائلهم منذ بداية الخمسينيات، نظرًا لأهمية هذه المخطوطات، وكان الفلاحون في كل مرة يعطون صيغة جديدة ومختلفة عن اكتشافهم. إذن من الصعب أن نعرف ماذا حدث في الحقيقة. لكن منذ اكتشاف هذه الجرّة، ظهرت دلائل جديدة توضّح مراحل وجود هذه المخطوطات بين أيدي هؤلاء الفلاحين الذين قال بعضهم إنهم أحرقوا قسمًا منها لكي يتدفأوا. ثم بيعت إلى تجار التحف في القاهرة، ثم مرّت فترة بين أيادي كاهن القرية القبطي الذي فهم من

اللحظة الأولى القيمة التجارية لهذه المخطوطات، وبعد تقلبات عدّة في السوق السوداء وبين أيدي تجار التحف، وصلت المخطوطات إلى الحكومة المصرية التي وضعتها في المتحف القبطي في القاهرة القديمة. وهي موجودة الآن ومرقّمة ومحفوظة داخل حاويات من زجاج.

أما الدفتر Codex الأول من هذه المجموعة، فقد جاء به إلى أوربا تاجر تحف بلجيكي، ثم بيع بعد موته إلى معهد كارل يونج في زيورخ (سويسرا). وبعد نشرها أعيدت إلى متحف القاهرة القبطي.

ما تبقى إذن من محتوى هذه الجرة هو عبارة عن ١٢ دفترًا من ورق البردي و٨ صفحات مفصولة، تعود إلى دفتر ثالث عشر وجد في غلاف المجموعة السادسة، كل دفتر مجلّد بجلد. وهناك رموز تزيّن الغلاف كالصليب الذي على شكل مرساة أو علامة (إنخ) المصرية وهو الحرف T، وعليه دائرة وهو يرمز إلى الحياة باللغة المصرية القديمة (الهيروغليفيّة). إن حالة الدفاتر تختلف في بعضها عن البعض الآخر، فالرمل في مصر كان عنصراً صالحًا للحفاظ على أغلبها، لكن قسمًا آخر تآلف وقد تطلبت ترجمته جهودًا كبيرة من الباحثين، وكل دفتر يحوي ثلاثة إلى سبعة مواضيع، ومجموع المواضيع هو ٥٢ .

قام الباحثون بدراسة هذه المخطوطات، وتبيّن أنها جميعًا تعود إلى الغنوصيّة، وقد حدّد العلماء هذا الأمر منذ البداية، وخصوصًا العالم الفرنسي هنري شارل بويش Puech المدرّس في كوليج دي فرانس، وج. دوريس Doresse وهو باحث في المَركَز الوطني للدراسات العلمية الفرنسيّة، والهولندي جورج كسبل Quisbel وهو أستاذ في جامعة أوترخت.

- لغة هذه المخطوطات

إن المواضيع الـ ٥٢، المكتشفة في نجع حمادي، مكتوبة باللغة القبطيّة، والقبطية

كانت اللغة المحكية في مصر في القرون المسيحية الأولى، وهي اليوم مستعملة فقط في طقوس هذه الكنيسة. وتشتمل على عدّة لهجات. وفي هذه الكتب نقرأ لهجة نجع حمادي المسماة اللهجة الصعيدية، وفيها الكثير من الكلمات الأخميميّة، والأخميميّة الجنوبية. وليست القبطية هي اللغة الأصلية لهذه المخطوطات فالأصل يوناني، وقد ألِفَت بين القرنين الثاني والرابع للميلاد في مصر، فقد كانت اليونانية لغة المثقفين في مصر، وكانت أيضًا لغة أجزاء أخرى من الإمبراطورية. ولم تبق على الأصل اليوناني إلا بعض نصوص، كالدفاتر ٦/ ٥، والدفتر ٦/ ٧، و ١٢/ ١، وهناك ترجمة لاتينية للدفتر ٦/ ٨، وأما المؤلّف منها بالقبطية فهي الدفاتر ٢/ ١، و ٣/ ٤، كما أن هناك أجزاء من نصوص باليونانية ونصوص فقط بالقبطية، ويبدو أن النساخ قاموا بترجمة هذه النصوص، كما يمكن أن نميّز، على وجه الخصوص، في الدفتر نفسه كتابات عديدة وخطوطًا مختلفة، وهي تفيدنا في تحديد أي من النصوص قاموا بنقله، فلكل عصر مقاييسه الخطيّة والجماليّة. وأما بخصوص مخطوطات نجع حمادي، فيمكننا أن نقول إن الدفاتر مكتوبة في بداية القرن الرابع الميلادي، وإن هذه الترجمات تمّت بطلب من جماعات غنوصيّة كانت تسكن في أعالي وادي النيل.

هناك عناصر أخرى تساعدنا على وضع تاريخ لهذه المكتبة، فهناك مخطوطات تحمل تاريخًا على الغلاف نفسه المحشو بأوراق عديدة، مثلاً غلاف المخطوطة ٧ يحتوي ورقَ البردي، يحمل تاريخًا بين ٣٣٣-٣٤٨ م، وهذه المخطوطة صُنعت بعد كتابة النص بقليل. هناك دلائل على التاريخ، تحدّدها نشأة البِدعة نفسها، مثلاً الأنوميّون الذين انتشروا في الإسكندرية حوالي ٣٦٠ م، وهذه التحديدات التاريخية ثمينة جدًا لدراستنا مخطوطات نجع حمادي.

- النصوص:

قلنا إنها ٥٢ بحثًا وجدت في نجع حمادي، وهي كل ما نملك من مكتبة الغنوصيّين

المقدّسة، ونحن أمام نصوص لها أشكال أدبية متباينة، فهناك أناجيل منحولة منسوبة إلى رسل: كإنجيل فيليب وإنجيل توما. وهذه " الأناجيل "، وإن لم يُقبَل بها في قانون العهد الجديد، إلا أنها انتشرت في الشرق، وسمِّيت بالأناجيل المنحولة وتعود إلى تقاليد قديمة جدًا، بعضها معاصر للأناجيل القانونية، كما هو الحال، حسب الإعتقاد السائد، بالنسبة إلى " إنجيل توما ".

هناك كتب كثيرة أيضًا تحوي أعمالاً حافظت على أحاديث سرّية بين يسوع ورسله، مثلاً أعمال بطرس وأعمال الرسل الإثني عشر، وهناك رسائل تشجيعيّة – مثلاً رسالة بطرس إلى فيليب والرسالة إلى رجينوس - Rhéginos، وأخيرًا هناك رؤى. هذه الرؤى منسوبة إلى شخصيات كانت مقرّبة إلى يسوع (رؤيا بطرس، رؤيا بولس، رؤيا يعقوب (... أو نُسبت إلى شخوص أسطورية وردت في التقليد اليهودي مثل " رؤيا آدم "، و " المبحث الثاني لشيت العظيم "، أو هي منسوبة إلى شخصيات خاصة بالميثولوجية الغنوصيّة، مثلاً (زوسترين) وهذا كتاب رؤيوي، فحتى إن لم يكن ذلك موضحًا في العنوان المحفوظ لهذا الكتاب. وقد زوّدتنا هذه المكتبة بعدد من الكتب أو البحوث التي تحكي، بصورة رمزية، قصة الخليقة وقصة نهاياتها، (" أقنوم أولياء الملائكة " Hypostase des Archontes). كما وجدت بعض النصوص الفلسفية مكانًا في مكتبة نجع حمادي، فقد كان كتّابها يعرفون النظريات الأفلاطونية المتوسطة والأفلاطونية الجديدة التي كانت منتشرة في ذلك الزمان، وعرضوا هذه الأفكار من خلال منظور غنوصيّ.

وما يلفت النظر هو أن وثائق نجع حمادي، غالبًا، لا تحمل إسم المؤلف، وإذا ما نُسب الكتاب إلى أحد فذلك ليس سوى تخيل (إنجيل فيليب، إنجيل توما)، لأن أسلوب النَسبة إلى شخصيّة مشهورة كان أمرًا منتشرًا في المؤلفات القديمة، إذ أن قيمة النص يضمنها شخصٌ قام بإملاء هذا النص أو بكتابته أو بوحيه. ولا ننسى، من جهة أخرى، أن هذه النصوص كتبتها جماعات مضطهَدة، فالإسم المستعار أو من دون إسم

هو إذن أمر مبرّر آنئذٍ.

إن نصوص نجع حمادي هي نظريات أو تنظيرات، ولا تبغي إعطاءنا أية معلومات حول حياة الجماعات التي كانت تقرأها أو تستعملها، مما يجعل من الصعب أن نقوم بدراستها التاريخية ونتغلغل في الوسط الغنوصيّ.

إن هذه المكتبة تحدّت القرون وأخفيت في جرّة، ولعلها كانت مدفونة تحت الأرض منذ القرن الرابع الميلادي، من قبل جماعة غنوصيّة كانت مهدّدة بالخطر، فأخفت وحفظت لنا أثمن ما كانت تملك. يمكننا إذن أن نتصوّر فنقول: في القرن الرابع وفي منطقة تسمّى (خينوبسكيون)، وهي مليئة بالأديار المسيحيّة القبطية التي أسسها القديس باخوم، وُجدت هذه المكتبة التي ربّما كانت ملكًا لإحدى الجماعات الرهبانية التي قامت بنسخها ونقلها، وهي وإن كانت تعدّها هرطوقية، حافظت عليها لكي تنتقدها. أو لعلها، إذا جاز الاعتقاد، كانت ملكًا لأحد هذه الديورة التي كانت متعاطفة مع هذه البدعة وواقفة على حافة الإيمان القويم، فقامت بدراستها والاحتفاظ بها كجزء من مكتبتها.

قائمة بنصوص مكتبة نجع حمادي المكتشفة والمدوّنة على ورق البردي:

١ - صلاة بولس الرسول

٢ - منحول يعقوب

٣ - إعلان الحقيقة

٤ - الكتاب عن القيامة

٥ - الكتاب المثلّث الأجزاء

٦ - كتاب الأسرار ليوحنا

٧ - إنجيل توما

٨ - إنجيل فيليبس

٩ - جوهر الأراكنة أو الأرواح الكبيرة

١٠ - الكتاب الذي بلا عنوان

١١ - كتاب تحليل الروح

١٢ - كتاب توما المصارع

١٣ - إنجيل المصريين

١٤ - اغنوص المبارك وحكمة يسوع

١٥ - حوار المخلّص

١٦ - رؤيا بولس

١٧ - رؤيا يعقوب الأولى

١٨ - رؤيا يعقوب الثانية

١٩ - رؤيا آدم

٢٠ - أعمال بطرس والرسل الأثني عشر

٢١ - (برنتي) أو الذكاء الكامل

٢٢ - الخطاب الحقيقي

٢٣ - مفهوم قدرتنا العظمى

٢٤ - أفلاطون الجمهوري

٢٥ - (اغدواد) والانيائة

٢٦ - صلاة الشكر

٢٧ - اسكلبيس، تحليل سام أو شرح سام

٢٨ - الكتاب الثاني لشيت العظيم

٢٩ - رؤيا بطرس

٣٠ - تعاليم سلفانوس

٣١ - نُصب شيت الثلاث

٣٢ - زوسترين

٣٣ - رسالة بطرس إلى فيليب

٣٤ - ملكيصادق

٣٥ - فكر نوريا

٣٦ - شهادة الحقيقة

٣٧ - مرسانيس

٣٨ - شرح المعرفة

٣٩ - عرض فالنتيني. وأجزاء حول المسحة والعماذ والأوخارستيا

٤٠ - الغريب

٤١ - هيبسيفروني

٤٢ - مقولات سكستس

٤٣ - مقاطع من كتاب

٤٤ - بروتينويا المنتصر

القسم الثاني

مؤلفو هذه النصوص

كتب الغنوصيّون نصوصًا كثيرة، واستشهدوا بها كثيرًا وشرحوها، وقام آباء الكنيسة بالاعتماد على هذه الكتابات في دحضها.

ولكن هل يمكن التعرف على مؤلفيها؟ هل يمكننا رسم صورة لهؤلاء المعلّمين الذين كانوا ينقلون على الورق خبرتهم الدينية وذلك بموهبة فلسفية وقوة شعرية لا تنكر؟

إن هذه المهمة صعبة جدًا، فإن كنا بالتأكيد نمتلك أسماء أولئك المعلّمين الغنوصيّين الذين يذكرهم آباء الكنيسة الذين تطرقوا إلى الهرطقات، لكنهم لا يقولون إلا القليل عن حياة هؤلاء المعلمين الغنوصيّين أو عن أوساطهم وحياتهم وثقافتهم، فإنهم يتوقفون عند سلوكيتهم الأخلاقية، ويعطون تفاصيل ومعلومات لا يمكن – في الغالب – الإعتماد عليها كليّة. وإذا انتقلنا من جهة أخرى إلى نصوص الغنوصيّين المكتوبة بيدهم، خصوصًا ما حفظته لنا مكتبة نجع حمادي، سنرى أن المعلومات عنهم قليلة أيضًا. من ناحية أخرى، إن هذه الكتب لا تحمل أسماء مؤلفيها، وقد نتمكن أحيانًا أن نتعرّف مؤلفًا ما من خلال أسلوب الكتاب، أو على الأقل نتعرّف على المدرسة التي كتب الكتاب فيها، لكن ذلك يبقى في الغالب مجرّد ترجيح أو حدس.

معلمو فكر

أراد إيريناوس أن يصف بعض أوجه الشخصيات الغنوصيّة، فبدأ بتقديم معلّمي زمانه، ثم حاول أن يربط بينهم وبين الذين أثّروا فيهم، فوضع ما يشبه قائمة نسب فكري وتعليمي للغنوصيّة، ولكننا بعكس إيريناوس سنحاول، بموضوعيّة، إحترام التسلسل الزمني الذي يعيدنا إلى بداية القرن الأول للمسيحية.

أ- سمعان (أو سيمون) الساحر:

ولد في السامرة، وكانت حياته مضطربة ومليئة بالمغامرات، لكن من الصعب علينا أن نميّز بين ما هو أسطوري وما هو حقيقيّ بشأنه. فسفر أعمال الرسل يصف سمعان وصفًا سلبيًا جدًا، إذ يبدو أنه حاول شراء ذمّة بطرس الرسول، ليحصل، مقابل بعض المال، على إجتراح المعجزات من خلال وضع اليد (الرسامة)، لكنه خاب في مرتجاه فطُرد من جماعة أتباع يسوع (٨/ ٩- ٢٥)، واضطرّ إلى الهرب والترويج لآرائه في مناطق أخرى، وكانت رسالته تحمل طابعًا غنوصيًا واضحًا. ولم يكن سمعان يعمل لوحده، غذ يذكر آباء الكنيسة الأوائل أن بغيًا، في غاية الجمال إسمها هيلين كانت ترافقه، وكان قد أخرجها من ماخور في صور، وأصبحت ملهِمة له.

هكذا شكلت حياة سمعان وتعليمه كتلة واحدة، فهو يذكر رفيقته هيلين، في كتاباته، كرمز إلى فكرة الألوهة، وإنّ هذه الفكرة ترافقه أينما حلّ، يستقي منها إبداعه، بحيث إن الملائكة الذين يولدون من تلك الفكرة كانوا يَحسدونه على قدرته في اجتراح معجزاته، لذا إستطاعوا في الأخير سجنه في جسد بشري، وربطوه بحلقة تناسخ لا رحمة فيها. أمّا هيلين، فكانت بالنسبة إليه ملخّص كل شيء، إنها جيش النساء الذي يبدأ بهيلين أخرى، حسناء طروادة، وهي رمز للروح المسجونة في المادة. لذا فرض سمعان على عاتقه رسالة أن يحرّر الأرواح من عبودية الملائكة (الأشرار). وهذا ما يشرحه كل مِن القديس إيريناوس في كتابه "ضد الهراطقة" (١، ٢٣/ ١-٤) وهيبوليطس في ("الدحض" ٦، ٩/٣-١٨، ٧).

كان سمعان ابن أرض السامرة الثائرة، فجمع في نظامه، في الوقت عينه، إرث اليهودية والجدل الذي كان منذ زمن بعيد قائمًا ضدها. فالخالق، لديه، إله شرير، يريد ضياع الأرواح، ويعدّه سمعان صِنوًا لإله العهد القديم، أمّا أنبياء العهد القديم فكلهم بحسبه أنبياء كذبة. هذه العناصر في تعليم سمعان، ستصبح أمورًا ثابتة في منظور الغنوصيّين الذين سيأتون من بعده. وقد أسهم سمعان في تنقلاته على نشر أفكاره، فكان

يجوب المدن والمقاطعات في سائر أنحاء الإمبراطورية الرومانية يروج لها. وهناك رواية منسوبة إلى كليمنضس المنحول، تحكي جدالا قام بين بطرس الرسول وبين سمعان، يحاول فيه كل واحد أن يفرض نظريّته ورسالته. كما تحكي الرواية أيضًا أن سمعان انتهى نهاية تعيسة، فكان يعتقد أنّه أصبح مساو للإله، وأراد أن يبرهن على ذلك، فارتفع عن الأرض إلى السماء، بفعل السحر، لكن بطرس أبطل سحره فسقط على الأرض ومات.

ب- ميننذر وساتُرنين Saturnin & Ménandre

يمكن القول إنّ ميننذر هو وريث سمعان الساحر، فهو أيضا من مواليد السامرة، ومثله كان يدّعي القيام بأعمال سحريّة عظيمة. وادّعى أنّه مخلّص للأرواح السجينة في هذا العالم، فقال: إنّه يعطيهم وسيلة للتخلّص من الملائكة الأشرار، أي ملائكة الخلق الذين يستعبدون البشر بخلقهم إياهم. وكان يعلن أن الله مطلق وأنّه يختلف كل الإختلاف عن الكون، وقد أصبح هذا الموضوع كلاسيكيًا في الأدب الغنوصيّ اللاحق.

لكن الإطار مع ساترنين مُختلف، فهو من أنطاكيا في سوريا، وفيها يؤسس مدرسة خاصّة به، ويُعلن التبشير بإله مجهول، صنع الملائكة ورؤساء الملائكة، وأن سبعة من هؤلاء خلقوا العالم، ثم أرادوا خلق الإنسان إنطلاقا من صورة بهيّة تجلّت لهم، ولكنهم عجزوا عن ذلك، فلم تتمكّن خلقتهم تلك حتى من الوقوف على قدميها، ولمّا رأى الإله المجهول ذلك، تحنّن على الإنسان وأرسل إليه شرارة من نور، فوقف منتصبًا وعاش بفضل تلك الشرارة. يقول ساترنين: ولهذا منذئذ تسعى تلك الشرارة أن تصعد إلى الأعلى حيث كانت سابقًا، أما القشرة الجسدية فمحكوم عليها بالزوال. (يذكر كلّ من إيريناوس وهيبوليتس هذا الموضوع).

هكذا يرسم ساترنين بوضوح أسطورة خلق العالم والإنسان في الغنوصيّة، ومن بعده، سيقوم المعلّمون الغنوصيّون، منذ منتصف القرن الثاني الميلادي، باتخاذ منحىً أكثر

تعقيدًا في تنظيمهم إياها (سنعود إلى هذا الموضوع لاحقًا).

ج- بازيليد Basilide

ننتقل من سوريا إلى مصر، حيث عاش بازيليد بين ١٢٠ - ١٥٠م، وأسس مدرسة في الإسكندرية، لكن لم يبق لدينا من آثاره سوى عناوين مؤلّفاته وبعض المقاطع التي ذكرها عنه خصومه. فقد خصّص هؤلاء صفحات كاملة لعرض نظريّاته. واهتم بنقده آباء إسكندريون مثل كليمنضس وأوريجانس. وكان بازيليد، مثل معلمين غنوصيّين آخرين، يشعر بالحاجة إلى ربط نفسه بتسلسل رسولي لكي يُقنعوا الناس بمصداقية تعاليمهم. فقالوا إن الأسرار لديهم ترجع بخط مستقيم إلى يسوع مباشرة، من خلال تلاميذه المقرّبين كبطرس أو تلميذ آخر ليسوع يدعى لاوسياس، هذا بحسب ما نقله إلينا عنه إيريناوس، أو إنّه متّى الرسول وكاتب الإنجيل، بحسب ما نقل هيبليتس.

وأهمّ ما يميّز طبيعة بازيليد هو التشاؤم الشخصي أولاً، فقال: "إن كلّ روح ملوّثة بالخطيئة تتحمّل العقوبة عن أخطائها، فمن المستحيل أن نجد أحدًا يتألم بلا أن يكون ذلك الألم ناتجًا عن الخطيئة"، نقل ذلك عنه كليمنضس الإسكندري[٥]. وليست الخطيئة والمخالفة محصورتان بالإنسان، فالحيوان أيضًا قادر على ارتكابهما، فيعاقَب هو أيضًا مثل الإنسان. يقول بازيليد إن تناسخ الأرواح، من الإنسان إلى الحيوان هو إحدى وسائل التكفير عن الخطايا. وتغطي نظرة بازيليد المتشائمة هذا الكون كلّه. إلا أن الله وحده - الذي لا يمكن للإنسان أن يصفه - بعيد كل البعد عن هذا العالم، فهناك ٣٦٥ طبقة تفصله عن الخليقة. هذه الطبقات السماويّة تسكنها كائنات عدّة و"انبثاقات" إلهية يتناقص كمالها بقدر ابتعادها عن الله واقترابها من العالم، أما خلق الأرض وكل ما عليها، فيعود إلى الملائكة التي تسكن طبقات السماء السفلى واسمها الأراكنة (اركاون أو أركوني) وزعيمها هو إله اليهود. ولكي يقوم الله الحقيقي بتحرير المؤمنين به، يرسل إلى هذا العالم إبنه البكر واسمه (لوغوس) أي

العقل، وهو المسيح. (هذا الموضوع ينقله ويشرحه إيريناوس وهبوليطس[٦]). ويصف بازيليد المسيح بأوصاف شِبهوية ومظهرية، وبطريقة مشتركة بين كل المؤلفين الغنوصيّين لدى تطرقهم إلى شخص المسيح، إذ ينكرون كل بُعد جسديّ وإنساني وظاهر فيه، فهو لم يتجسد ولم يتألم على الصليب، لأن هذا يتناقض مع طبيعته الإلهية، عندهم، المسيح غير متجسّد كما تصفه النصوص الكتابيّة، ومن الطبيعي أن هذا أثار حفيظة الكنيسة الجامعة دائمًا. وبازيليد واضح حول هذا الموضوع إذ يقول: "ظهر المسيح على الأرض تحت شكل إنسان وقام بمعجزات" (لاحظ التغبير "تحت شكل" وليس كإنسان)، والنتيجة إذن أن يسوع لم يتألم هو نفسه، ولكنّ شخصًا آخر هو سمعان القيرواني حمل صليبًا عنه وتألم عوضًا عنه، وهذا سمعان هو الذي صلب عوض المسيح لأن الله ألقى عليه شِبهه لكي يظنّوا أنه هو المسيح، أما يسوع فأخذ شكل سمعان ووقف تحت الصليب وقام يضحك ويسخر من الأراكنة التي كانت ضدّه. وبهذه الطريقة سخر المسيح من الملائكة (الأراكنة) على الأرض، ثمّ قامٍ وصعد إلى أبيه. يقول الغنوصيّون إنهم وحدهم فقط يعرفون هذه الحقيقة، فهم الذين تحرّروا من سلطة الأراكنة الذين خلقوا هذا العالم. ولذلك، كل إنسان يعترف بأن يسوع قد صلب هو عبدٌ، ويجب أن يتحرّر. أما الذي يُنكر صليب المسيح، فهو يعرف تدبير الآب الذي لم يلده أحد"[٧].

بازيليد يعلن قيامة الأرواح، ولكن ينكر قيامة الأجساد، لأن الجسد فاسد بطبيعته. ولكن كيف يمكن للروح أن تتخلص من الأراكنة الذين يطوّقون هذا العالم ويستعبدونه؟

يمكن للروح أن تعمل ذلك بالصلوات وبلفظ كلمات سحرية، وهي تحمل معها كلمات سرية، هي كلمات العبور، والروح وحدها تعرف تلك الكلمات. هكذا تتمكّن من اختراق السماوات الـ ٣٦٥، ستجتازها بلا أن تراها القوات والسلاطين التي تسكن تلك السماوات، وذلك ممكن لأن الروح تعرف الإسم الحقيقي بينما تلك القوى

السماوية لا تعرفه. ويقول بازيليد: " قليل من الناس لها القدرة على هذه المعرفة، بل هناك واحد من ألف أو أثنين من عشرة الآلاف، وعليه أن يحتفظ بهذه الأسرار بشكل قوي، وأن تحفظ كالأسرار في الصمت "[٨].

د- فالنتين Valentin

شخصية متعدّدة الأوجه، فهو لاهوتي متميّز، ومفسّر بارع للكتاب المقدس، وفيلسوف سبّاق وشاعر. ولد في مصر حوالي عام ١٠٠م في قرية من قرى دلتا النيل، ودرس في الإسكندرية. وفي القرنين الأولين من المسيحية، كانت الإسكندرية مركزًا ثقافيًا بالغ الأهميّة يسهم في إنعاشه كل اليهود والمسيحيين والوثنيين، والحكم في يد الإمبراطورية الرومانية والإمبراطور هو هادريان (١١٧-١٣٨م). في ذلك الزمان ليست مصر سوى مقاطعة رومانية غنيّة بمدارسها الفلسفية، ويتزاحم في أكادميتها معلمون طبّقت شهرتهم الآفاق. الإسكندرية ملتقى فكري وتجاري واقتصادي لا مثيل له، وفيها يمكن أن يلتقي المرء بشخصيات عجيبة، وبأجناس بشرية متنوّعة، ويسمع نظريات جريئة جدًا جاءت من الشرق والتقت بما يأتي من الغرب. التجار يأتونها بعجائب المنتجات من كل حدب وصوب، والثمار الغريبة والمدهشة مكدّسة على أرصفة شوارع الإسكندرية. هكذا تتولد عادات جديدة وتلتئم كثمرة لأسفار البحر والبر وكل القوافل تقصد هذه المدينة الفريدة. في هذا العالم عاش فالنتين وتردد على نخبة زمانه الفكرية، ونسج بذكاء محكم نظرياته، وقام هو أيضًا، بدوره، يلقي دروسًا ومحاضرات. إنه متمسّك بمسيحيّته، ولكنّه يريد أن يكون وارثًا لتعليم خصوصيّ، أسرّ به المسيح إلى بولس الرسول وهذا نقله إلى تلميذه تيؤداس Théodas.

حوالي سنة ١٤٠ غادر فالنتين مصر إلى روما عاصمة الإمبراطورية، وسكن فيه حوالي ٢٠ سنة. وفي روما تحمّل مسؤوليات في الكنيسة المسيحية، وكاد يصبح أسقفًا. ولكن حوالي سنة ١٦٠م ترك فالنتين الكنيسة المسيحية. فماذا حدث له في روما؟

لسنا ندري، ولكن يُعتقَد أن نظرياته، التي كان يعلّمها، بدأت تزعج مسؤولي الكنيسة، وان حلقة التلاميذ، التي كان قد كوّنها، بدأت تزعج أيضًا، فتفسيره جريء جدًا للنصوص ويقوِّل النصوص ما لم تقله. فالنتين عندئذ بدأ سلسلة رحلات، ويبدو أنه زار قبرص وأسّس فيها مدرسة. ولسنا نعرف الشيء الكثير عن سنة وفاته ونهاية حياته، ولم يبق لنا من عمله الأدبي إلا بعض النتف، وقد حفظها لنا كليمنضس الإسكندري معاصره ومواطنه أيضًا، وحفظ لنا بعض الشيء أيضًا هيبوليتس. لنذكر نصًا قصيرًا منه بليغًا بقوّته الشعرية والدرامية، نقله لنا هيبوليتس، يقول:

" أرى بالروح أن كل شيء معلّق،

واعرف بالروح أن كل شيء محمول،

الجسد معلّق بالروح،

والروح معلّقة بالهواء،

والهواء معلّق بالأثير،

والثمار تتهاوى خارج الغمر،

وطفلٌ يخرج من الرحم " .

قد تكون هذه اللغة مستغلقة على القارئ الجديد، لكنها بليغة في اختصارها، فبواسطتها يعطي فالنتين كل فكره المبني حول الأسطورة ، ويشرح القديس هيبوليتس محللا هذا النص للقارئ ليساعده على الفهم، فيقول: المقصود بالجسد هنا هو المادة المعلقة بالروح، روح الإله الثانوي، الفاطر الشرّير، خالق هذا العالم، والروح التي يحملها الهواء، يعني أن الإله الثانوي تحمله الروح التي ما وراء العالم الإلهي، واسم هذا العالم الإلهي " البليروما " (أي الملء في الغنوصيّة). والهواء معلّقٌ بالأثير، والأثير هو الحكمة، "صوفيا" . والأثير معلّق بالحدود الداخلية السحيقة (حورس)، والكل معلق بـ (البليروما - الملء)، وثمار الحصاد هي الأيونات، أي الإنبثاقات التي تنبع من الآب.

كي نفهم أبعاد التعليم الذي عرضه فالنتين في الإطار الأسطوري، يجب أن نعود إلى كتابات آباء الكنيسة الذين حاربوا البدع وحفظوا لنا صِيغًا متعددة من هذه الأساطير، وشهدوا على أهمية فالنتين، كمفكّر غنوصيّ، وناقل للأساطير. فعلى سبيل المثال يمكن أن نختصر ما أورده القديس إيريناوس في كتابه "ضد الهراطقة" (١/١١ أ) من دون أن نستثقل تعقيد الفكر الغنوصيّ، إنه، في الحقيقة، الجزء الخفي من تعليم نقله فالنتين وحفظته جماعات من تلاميذه، كانوا قد تتبّعوا المسلسل الكامل لبحوثه وتعاليمه. لقد كان فالنتين، كمعلّم مشهور في زمانه، يدّعي امتلاك قابلية إصغاء خاصّة تساعده على كشف الحقيقة، وهذا الكشف كان يحتوي العالم العُلوي الذي يدعى لدى الغنوصيّين الملء (بليروما) pleroma. وفي قمة الامتلاء، حقيقتان مزدوجتان: – حقيقة ما لا يمكن التعبير عنه، وحقيقة الصمت. وبالتعبير الغنوصيّ يطلق عليهما إسمًا تقنيًا هو (سيزيكيا). فيهما عنصرا واحدًا ذكرا هو الإله، وعنصراً أنثويًا هو الصمت (زيكي باليونانية كلمة مؤنّثة). فيتولّد من هذين العنصرين زوجان آخران يتكوّنان بدورهما من عنصرين آخرين: ذكرًا وأنثى: الذكر هو الآب، والأنثى هي الحقيقة.

هكذا أصبح لدينا أربعة عناصر أساسيّة، هي عناصر الخصوبة التي، بدورها تُطلق أربعة عناصر أخرى وهي: الكلمة (اللوغُس)، الحياة، الإنسان والكنيسة. فيصبح مجموع العناصر ثمانية، بعد ذلك ينطلق من هذه الثمانية عناصر أخرى ليصبح المجموع ثلاثين عنصراً.

آخر العناصر الثلاثين أنثوي، إسمه الحكمة (صوفيا) ومعه تبدأ مشاكل الملء (البليروما). إذ تقوم صوفيا بالهرب من قرينها الذكر المسمّى ثيليتس (الحدّ أو الحدود باليونانية)، وهذه "الحدود" متعلّقة مشغوف بصوفيا، لكنها تقع في غرام الآب، فيضطرب توازن عناصر الملء (البليروما)، وتُرتكب أوّل خطيئة جنسيّة، وهي خطيئة التجاوز والإدّعاء. فتقع صوفيا في عبودية الآب، وتكاد تذوب في العنصر الكوني

الشامل. حينئذ يتدخل زميلها (تيليتس) "الحدّ"، حارس نظام (البليروما – الملء) ليعيد الحكمة (صوفيا) إلى مكانها. لكن الرغبة التي سكنت فيها لن تزول عنها نهائيًا، بل ستتحوّل إلى عنصر آخر، يسقط إلى أسفل وبه تتكوّن بداية الخليقة.

الخليقة إذن تنبع من الرغبة، لكن هذه الرغبة سوف تحدث بطريقة ناقصة ومضطربة، فتصبح الروح سجينة. لكن التعطش إلى المعرفة الذي حرك صوفيا، في عالمها العلوي، يبقى مطبوعًا في الروح بمثابة وشم: وتصبح هذه الرغبة بالمعرفة أولى الخطوات نحو الحرية والعودة إلى الوطن السماوي.

إن أسطورة صوفيا هذه تشكّل مفتاحًا مهمًّا لفهم كل الملابسات الخيالية الغنوصيّة، وقد قام باستعراضها ودراستها أتباع مدرسة فالنتين، فأغنوها، مع الزمن، بمعلومات أخرى وأضافوا إليها، وبدّلوا فيها بعض الأمور.

هـ - مدارس فالنتين Valentin

مدرستان لاهوتيتان طوّرتا فكر فالنتين: المدرسة الغربية والمدرسة الشرقية.

المدرسة الغربية: اشتهر منها بطليموس وهيراكليون وكلاهما ولد في الإسكندرية، لكنهما قاما بالتعليم في روما. ويُعدّ تعليم بطليموس أساس كل ما دحضه القديس إيريناوس في حمله على الغنوصيّين. فأسقف ليون إيريناوس مطّلع تمامًا على فكر بطليموس الذي كان معاصرًا له. وكان الغنوصيّون يضعونه في أعلى قائمة لاهوتييهم، ويعتمدون تفسيره للكتاب المقدس. وعمومًا كانت المدارس الفلانتينية تخصص وقتًا كبيرًا لدراسة الكتاب المقدس، وكانوا يمارسون القراءة المجازية. فقصة الخلق، في سفر التكوين، مثلا، أصبحت موضوع تحليل واجتهاد كانت في أغلب الأحيان بعيدة، كل البعد عن النص الأصلي. فشطحوا بعيدًا عن المعطيات التقليدية التي كانت في التفسير اليهودي والمسيحي. لكن القديس إيريناوس لم يحفظ لنا سوى بعض المقتطفات من بطليموس، أما ابيفانوس فقد نقل لنا كتابًا كاملاً عن هذا المؤلف

الغنوصيّ. وهي عبارة عن رسالة عقائدية كان بطليموس قد وجّهها إلى فلورا، النبيلة الرومانية التي كانت قد اعتنقت الديانة الغنوصيّة. إن هذه الرسالة تكشف عن تعليمٍ أقل تعقيدًا من الفكر الأسطوري الذي كان مخصصًا فقط للمطّلعين منهم، فهو بهذه الرسالة يقود الخطوات الأولى للمهتدية، فتتقدّم في انتمائها إلى الغنوصيّ. يشرح المعلم لها بعض النقاط، ويعطيها مفاتيح الغنوصيّة، ويميّز بشكل واضح بين الله الأعلى الذي لا يعرفه أحد، وبين الإله الفاطر الناقص، الذي هو إله اليهود، ويقوم بطليموس باعتماد نصوص من العهد القديم. أما هيراكليون فيهتم بخاصّة بالعهد الجديد، معتدًا نصوصًا طويلة من إنجيل يوحنا، وقد حفظ لنا أوريجانس كل هذه التفاسير. أما أفكار هيراكليون الأساسية فهي التمييز بين الإله المجهول والإله الفاطر الخالق. من جهة أخرى ينقسم البشر لديه إلى ثلاث طبقات: الروحانيون (بنيوما باليونانيّة) والنفسانيون (بسيشِه) والجسدانيون (هيلي —وبالعربية القديمة هيولي).

أما الروحانيون، فكما يشير إليه إسمهم، لديهم الروح، إي عندهم " الشرارة" الإلهية التي ستخلّصهم حتمًا، ولهؤلاء الخلاص مكتوب.

أما النفسانيون، فيجب عليهم أن يلجأوا إلى الأعمال الصالحة لكي يصلوا إلى الخلاص.

وأخيرًا الماديون، وهؤلاء ليس لديهم أي أمل في الخلاص، لأنهم مرتبطون بالأرض وبغرائزها ومحرومون من كل شرارة إلهية، وهم منذ الآن محكومٌ عليهم حكمًا أبديًا.

المدرسة الشرقية: تأصّلت هذه المدرسة في مصر وسوريا ولم تُعرَف كالغربية. وقد أثّر فيها إثنان من المفكّرين: تيودوت ومرقس الساحر. ولا نعرف شيئًا عن حياة الأوّل. ما عدا ما حفظه لنا إكليمنظس الإسكندري، وهي نصوص تعاليمه الفلكية، فينقل عن تيودوت قوله: " إن المخلّص سيأتي ويهدم تأثير النجوم السيئة ويخلّص الأرواح" . لكن مرقس الساحر مهووس بالأسرار والأرقام وتأثيراتها، ومن آسيا الصغرى (في تركيا الحالية) انتشرت تعاليمه حتى وصلت فرنسا، فقام إيريناوس في نهاية القرن الثاني

بالتنديد ببعض تلاميذ مرقس الساحر، وكانوا عديدين ويعملون بجد ونشاط لنشر تعاليمه. إن النظام الذي دعا إليه مرقس الساحر يربط بين الممارسات الطقسية والطابع الخاص للأسرار التي تفتح الطريق أمام المعرفة.

و- مسألة البدع

سمعان، بازيليد، فالنتين، مرقس الساحر، كلّهم كسبوا أتباعًا لهم، وأسسوا مدارس. يمكننا إذن، من الناحية التاريخية، أن نقول إن هناك مدرسة بازيليدية أو فالنتينية أو مرقسية بل وحتى سيمونيّة. وقد شدّد آباء الكنيسة المدافعون إهتمامهم بالبدع، بحيث ذكروا أسماء بدع لا تنتمي إلى أحد من هؤلاء المعلمين الذين ذكرناهم، ولكنها منسوبة إلى شخصيات أسطورية. فإذا كرّمت بدعةٌ ما شخصًا أسطوريًا، أطلقوا عليها إسم تلك الشخصيّة فصار عندنا "قائينيون" أي المتأثرون بقائين، والأوفيتيون هم الذين كانوا يعبدون الحيّة، والشيتيون الذين كانوا يدّعون أنهم أتباع شيت إبن آدم، والباربيلوتيون الذين كانوا يكرّمون الشيطانة باربيلو (ويعني اسمها نضوح الإلهي الأنثوي)، التي قرنها بعض الغنوصيّين بالحكمة (صوفيا) وغير ذلك.

وقد وضع إبيفانس قائمة بتلك البدع، فذكر فيها أكثر من ثمانين بدعة أو هرطقة غنوصيّة. وليس لدينا أي وسيلة للتأكد من صحّة هذه الأسماء بل قد تكون، أحيانًا كثيرة، مجرّد ثمرة لمخيلة آباء الكنيسة المدافعين (أو المنافحين) Apologists، وهي، على الأغلب، لا تتطابق تاريخيًا مع البدع التي حملت هذه الأسماء. لأن غاية آباء الكنيسة كانت أن يُبعدوا الغنوصيّين عن كل انتماء إلى الكنيسة، ويطردوهم خارج حدود المسيحية، ويحرموهم من كل إسم مسيحيّ، فإذا أطلق عليهم إسم آخر كان ذلك خير مبرر لاستعمال أحد أساليب النفي أو الحرم ضدّهم. لكن من جهة أخرى كان الغنوصيّون يعدّون أنفسهم مسيحيين، وكانوا يقولون إنهم هم المسيحيون الحقيقيون الذين يمتلكون جوهر رسالة المسيح.

ولعل هناك مبررًا آخر جعل آباء الكنيسة يلجأوون إلى مثل هذا الأسلوب: لأن تعدّد الأسماء وكثرة التعاليم يخالفان الحقيقة الواحدة التي تعلنها المسيحية، وفي ذلك فضح لفكر الخصوم، وتشتيت لتعاليمهم الخاطئة، وتفتيت لطاقاتهم، وتفريق لهم فلا يعود لهم أي تأثير يُذكر.

هناك أيضًا مؤلّفون مجهولون

وقفنا على أسماء ومعتقدات كبار المعلمين الغنوصيّين من خلال خصومهم، ممن حاربوا هذه البدع، ويضاف إلى ذلك، كل النتاج الأدبي المجهول الذي كتبه مؤلفون عديدون تركوا إرثًا واسعًا في النصوص التي أكتشفت في صعيد مصر، في نجع حمادي، أو في المخطوطات التي وُجدت في لندن وأكسفورد وبرلين. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا كتب هؤلاء تحت أسماء مستعارة؟ لماذا لم يوقّعوا نصوصهم؟

كانت العادة، فيما مضى، أن يحتمي الكاتب وراء إسم مشهور أو سُلطة دينيّة من الماضي، فنرى في مكتبة نجع حمادي: رؤيا آدم، أو الكتاب الثاني لشيت العظيم. أو قد يختفي الكاتب وراء شخصية أسطورية أو أمثولة أدبية تعطينا وحيًا معينًا كما في كتاب "بروتينويا" Protenoia من مكتبة نجع حمادي أو كتاب "بِستس صوفيا" Pistis Sophia (أي إعلان الحقيقة) في مجموعة بروس Bruce، ويمكن أن تنسب المؤلفات إلى شخوص نصف إلهية ونصف إنسانية، وهي تمتلك أسرارًا سماوية، مثل "زوسترين" و"مارسانيس" و"اللوجين"، فهذه كلّها عناوين مؤلفات وجدت في نجع حمادي (المخطوط ١٨ و١١). وقد كان هذا الأسلوب شائعا في العالم القديم.

وقد يكون للإسم المستعار سبب آخر وهو، كما ذكرنا آنفًا، الخوف من الاضطهاد، ففي القرن الثاني والثالث للميلاد، إنبرت السلطات الرومانية بقسوة شديدة تنكّل، بلا تمييز، بكل أشكال المسيحيين، وبطشت حتى بالغنوصيّين. ولكن بعد ٣١٢م، وتحت حكم قسطنطين الذي أطلق حريّة المسيحيين، بل ما عتّمت المسيحية أن أصبحت دين

الدولة، ولأسباب سياسية فإن هذا الإمبراطور - وهو يعي أن الإنقسامات العقائدية قادرة أن تقود إلى اضطرابات إجتماعية - إذ كان يريد هو كنيسة واحدة قويّة، فقام بشنّ اضطهادات ضد المعارضين، فحاربهم. كما حارب فلول وبقايا الوثنية. فسرت موجة اضطهادات دينية دفعت بعض المؤمنين إلى أن يتّهموا بعضهم بعضا بالبدع والهرطقة، وساعدوا الدولة في حملاتها عليهم.

نظرة على بعض الوثائق الغنوصيّة

إن الكتب الـ ٥٢ التي في نجع حمادي تمثّل مكتبة لها محور واحد وهو مفهوم المعرفة، وهذه المعرفة تأتي من وحيٍ مخصّص، تنفرد به جماعة قليلة صغيرة. ولدينا في هذه المكتبة كتب أدبية بليغة، وكتب أخرى أقل جودة من الناحية الأدبية. هناك محاولات فلسفية ومختصرات كتب وشعر ونثر، وكان البعض لم يزل بشكل مسوّدة. أما تاريخ هذه الكتابات فيختلف، بعضها قديم جدًّا، مثل كتاب الأسرار المنسوب إلى القديس يوحنا الرسول، وقد يعود إلى بداية القرن الثاني الميلادي، وبعضها متأخر ومعاصر للجماعة الغنوصيّة التي عاشت في نجع حمادي. سنقدم فيما يأتي مثالين لهذه النصوص حيث تبدو في الأول قوة شخصيّة المؤلّف، وفي الثاني تبدو قوة الرسالة التي يحملها الكتاب.

أ- "إعلان الحقيقة" (ن.ح ١، ١٣)، أو "معرفة الذات".

قد يكون هذا الكتاب من قلم أحد كبار الغنوصيّين وقد يكون لفالنتين، إذ يصف، هذا النص الصعيدي، بشكل مدهش ومثير مغامرة الإنسان وحيرته على الأرض.

ويأتي ذكر ثلاثة شخوص مهمة: الآب المجهول والإبن الذي هو المسيح المخلّص، والإنسان التائه في خضمّ كابوس هذا العالم. هذا الإنسان يحاول جاهدًا أن يسمو نحو الخلاص. والخلاص يعني لدى الغنوصيّين البحث عن الذات، ومعرفة الماضي

والحاضر والوعي التام بمصير الأنا: إنها المواضيع الوجودية التي تهمّ إنساننا المعاصر اليوم أيضًا وتحيّره.

ولم يُحفظ عنوان هذا الكتاب، ولذا سرت العادة أن يُطلق عليه عنوان "إنجيل الحقيقة"، وهو مأخوذ من السطر الأول من البحث، لكن بعض العلماء يفضّل أن يسمّيه "إعلان الحقيقة"، لأن تعبير "إنجيل" محدّد لا يبرر محتوى هذا الكتاب أن نطلق عليه "إنجيل". فالكتاب هذا في الواقع عِظة يمكن أن تكون قد قُرئَت أمام جماعة ما. يقول إيريناوس إن الفالنتينيين كانوا يقرأون في كنائسهم "إنجيل الحقيقة"، فهل هو عنى هذا النص الذي لدينا الآن؟ لا يستطيع أحد يقدر أن يؤكّد ذلك. إن الترجمة القبطية لكتاب "إعلان الحقيقة" قد تعود إلى عام ٣٥٠م، أما الأصل فهو باليونانية وقد ضاع، ومن المحتمل أن تأليفه يعود إلى نهاية القرن ٢م. وإذا كان فالنتين هو المؤلف، فقد يكون كتبه قبل سنة ١٧٥م، وهي السنة المرجّحة لوفاة فالنتين. وليس لدينا أية إشارات إلى مكان تأليف هذا النص، ولكن مقتطفات مختارة منه قد تعطينا فكرة عن القوة التي فيه:

"كان "الكل" يبحث عن الوحدة التي جاء منها، لكن الكل كان فيه (...). إن جهل الآب (أي الإله الفاطر الأدنى)، حرّك القلق والخوف، والقلق أصبح كثيفًا كالضباب، ولم يكن أحد يرى شيئًا البتّة، فقوي الضلال، فكوّن المادة في الفراغ، لأنه لم يعرف الحقيقة. كوّن الخليقة وجعلها جميلة، لكنه لم يجعلها حقيقيّة (...)، ولم يكن للضلال أي جذور، فبقي الضلال في الضباب (...)، وكان ينتج عن فاطره خوف ونسيان لكي يُغري القائمين في الوسط (أي النفسانيين) ولكي يبقيهم أسرى وسجناء (...)، فانتشر النسيان لأن الآب لم يكن معروفًا، ولكن عندما سيُعرَف الآب، لن يوجد هناك نسيان" (من فصل ١٧/ ٣٠ إلى فصل ١٨/ ٧).

ويصف "إعلان الحقيقة" المسيح مخلصًا يستجلي بفضله الإنسان حريته:

"يسوع المسيح بَعثَ نورًا إلى الذين كانوا في الظلمة، بسبب النسيان، فأشرق عليهم

وأراهم الطريق: هذا الطريق هو الحق (...)، ومن خلال المسيح إكتشف الناس الآبَ في داخلهم" (١٨/١٥-٢١).

ويعتقد الغنوصيّون بقوّة أن الخلاص مكتوب لهم وحدهم فقط:

"ظهر الكتاب الحي (كتاب الحياة) في قلبهم، وهو مكتوب في فكر وفي عقل الآب (...)، أمّا الأحياء الذين يذكرهم الكتاب، فمصيرهم هو المعرفة. سوف يعرفون أنفسهم وسوف يرون أنفسهم في الآب الذي سيعودون إليه" (١٩/ ٣٤، ٢١/ ١-٣).

ولدى مجيء المخلّص، ستختفي المادة وسيتحوّل الفراغ إلى امتلاء:

"حيث الحسد والصراع فهناك الفراغ، ولكن حيث الوحدة، فهناك الكمال. عندما يُعرف الآب، يختفي الفراغ (...)، وكما تختفي الظلمة عندما يشرق النور، هكذا يختفي الفراغ والنقص ويصبحان امتلاءً. ومنذ تلك اللحظة تزول سيادة ما هو ظاهر، سوف تُمحَق في تناغم الوحدة" (٢٤/ ٢٥- ٢٥/٦).

أما في كتاب "إعلان الحقيقة" فيُصبح الضلال مشخّصًا، هذا الشخص يولول أمام ما يهدده، فالخطر بالنسبة إليه يُسمى "ملكوت الحقيقة"، والحركة هنا رمز للنقص وللغرور والباطل، أمّا الراحة فبالعكس تعني حالة الكمال التي لدى الآب:

"كانت كل الطرق مضطربة، تتحرك بلا انقطاع، لأن الضلال كان ثائرًا لا يعرف ماذا يفعل. كان مضطربا باكيًا، يولول ويقول: "إني لا أفهم شيئا"، وبقدر ما كانت المعرفة تقترب، بقدر ذلك كان يندحر الضلال" (٢٦/ ١٥-٢٦).

وتُشبّه حالة الإنسان على الأرض، بالنوم الثقيل، الذي تجتاحه الأحلام المضطربة. فالحياة ليست سوى كابوس. وهذه المواضيع نجدها كثيرا في الكتابات الغنوصيّة، نراها هنا في هذا النص الذي يتميّز بوصف نفساني شديد الدقّة:

"لم يكونوا يعرفون الآب، لأنهم لم يكونوا يرونه (...)، وكما يقع الإنسان في النوم في وسط الكوابيس، فيهيم في جميع الإتجاهات، غير قادر على التخلّص من الذي يلاحقه أو يضربه ضربًا مبرحًا على جسمه، أو يقع من علوٍ شاهق، فيبدو وكأن الهواء يسحبه

إلى تحت، وليس من أجنحة تنقذه. وأحيانا لدينا الشعور أننا نُقتل، لكن من دون أن يلاحقنا أحد، أو أننا نقتل قريبنا، فيغطّينا دمه: ولكن بعد أن نكون قد تجاوزنا كل هذه الأحلام، نستيقظ. وفي وسط هذا الاضطراب لا نرى شيئًا. لأن كل هذه الأشياء ليست بشيء. هكذا كل الذين يتجنّبون معرفة ذواتهم، يعتقدون أنها لا تساوي شيئًا، ولا يعتبرون من جهة أخرى أن هناك حقيقة واقعية. هؤلاء يتصرّفون كمن هو في حلم ليلي (...)، هكذا يتصرّف من لا يعرف، فهو كالنائم. أما الذي يعرف فبعكسه، يشبه المستيقظ. تبارك الذي فتح عيني الأعمى" (٢٨/ ٣٢-٣٠/ ١٥).

ب- "إنجيل توما" المنحول (نجع حمادي/ ٢،٢)، أو كلمات يسوع السرّية.

تظهر شخصية كاتب "إعلان الحقيقة" Pistis Sophia بقوّة ووضوح كما رأينا أعلاه. ولكن، في كتابات أخرى يختفي الكاتب وراء الفحوى ويكتفي بنقلها، فهذه الفحوى هي من القوّة بحيث يمسي فيها كل شرحٍ أمرًا نافلاً، إنه "إنجيل توما".

لقد كُتب الكثير حول هذا النص الثاني من مجموعة نجع حمادي، وهو يحتوي على ١١٤ مقولة أو قولاً، نُسبت إلى يسوع، ويعود نشره للمرة الأولى إلى عام ١٩٥٠، وقد أثار الكثير من الانفعالات، فتكلموا عنه كما لو كان الإنجيل الخامس الذي يكشف أحداثًا من حياة المسيح. وحتى اليوم، وبخاصّة في الولايات المتحدة، هناك دراسات تهتم بهذا الإنجيل جديًا، وخصوصًا في أوساط البِدَع التي تهتم بالسحر، والتي تدّعي أنها وريثة الغنوصيّة.

منذ عام ١٩٥٧، قام هنري شارل بويش Puech، وهو عالم كبير ومحنّك ومختص بالغنوصيّة، بدحض التأكيدات التي ادّعاها البعض، ووضع هذا الكتاب في المكان الذي يستحقه. وبرغم ما لهذا النص من أهمية علميّة، إلا أنه بعيد كل البعد عن المسيحية القويمة.

إن هذا "الإنجيل" في الحقيقة هو محاولة أدبيّة، نُسب إلى توما الرسول، وهو

بالتأكيد منحول.

توما، هو أحد التلاميذ المقرّبين إلى يسوع، تقول التقاليد القديمة، إن يسوع إئتمنه على تبشير المناطق الشرقية، فجاب بلاد ما بين النهرين حيث أسّس كنائس، ويقال إنه وصل حتى الهند والصين. والكنائس السريانيّة جميعها تكرم القديس توما بنوع خاص، وهناك تقاليد تقول إن رفات توما محفوظ في كنيسة الرها (أورفة الحالية). وفي بعض المناطق يطلقون عليه إسم "يهوذا - توما".

أما في الغرب فكانوا في العادة يسمّونه توما، أو توما التوأم، أما إسم "التوأم - يهوذا - توما" فمستعمل في الإنجيل المكتشف في نجع حمادي، وهذا عامل مهم لدراسة مكان تأليفه الأصيل.

في بلاد ما بين النهرين، انتشرت كتابات أدبية كثيرة حول هذا الرسول، فوصلتنا "أعمال توما" باليونانية وبالسريانية (كانت بلاد ما بين النهرين لزمان طويل تستعمل كلتا اللغتين). وتحكي "أعمال توما" قصة رحلة هذا الرسول، وفيها بعض النقاط المشتركة مع الإنجيل الذي وجد في نجع حمادي (راجع أنشودة الجوهرة في نهاية هذا الكتاب).

كانت شخصية توما مكرّمة من قبل المسيحيين السريان، وكرّمه أيضًا تيّار ديني آخر، ذو جذور عميقة في الأوساط اليهودية - المسيحية، الذي انتشر في الشرق الأوسط وفي بلاد ما بين النهرين، وجاء ذكره في نصوص الديانة المانويّة. لكنّ المسيحية حاربت ودحضت المانويين واتهمتهم بالبدعة أو الهرطقة، وساعدت في انقراضهم وإتلاف الكثير من كتاباتهم (التي أكتشف قسم كبير منها في خمسينيات القرن الماضي قرب طرفان في غرب الصين وهي ذات أهمية كبيرة بالنسبة إلى العلماء، وكثير منها مكتوب بالسريانية). وهذا دفع بعض آباء الكنيسة يرون أن كل كتابة تدور حول شخصية توما الرسول قد تحمل صبغة هرطوقية.

أما "إنجيل توما" الذي هو من ضمن مكتشفات نجع حمادي فقد وصل إلينا

بالقبطية، ويبدو أنه قد تُرجم عن اليونانية. وهنالك بعض نصوص باليونانية محفوظة، تتقاطع مع النص القبطي، وقد أكتُشفت أولى نسخه بين عامي ١٨٩٧ و١٩٠٣ في مخطوطات مصرية من مدينة أوخيرنك Oxyrhinque، تعود إلى نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث. قطع البردي هذه تمّت دراستها وكانت متطابقة مع اكتشافات نجع حمادي اللاحقة، بل كان بعض منها مقاطع من إنجيل توما عينه، مما يؤكد أن إنجيل توما كان واسع الإنتشار في باللغة اليونانية قبل أن يُترجم إلى القبطية. أما النص اليوناني، فعلى الأغلب هو أيضًا ترجمة من أصل مكتوب بلهجة آرامية كانت سائدة في بلاد ما بين النهرين. ومن المحتمل أن يكون إنجيل توما قد كتب في نهاية القرن الأول في هذه المنطقة التي كانت تكنّ لتوما الرسول تعلّقًا شديدًا.

في هذا الكتاب، ليس توما تلميذًا مثل الآخرين، إنه التلميذ المفضّل والمختار لدى المسيح، وكما يشير إسمه، عدّوه توأم المسيح، فالتوأم إذن هو لقب له وليس ترجمة يونانية شعبية عن السريانية التي قرّبت بين إسم توما والتوأم (توما وتاوما)، وهذا التقارب الرمزي يجعل من توما الناطق المثالي الذي يتسلّم من المسيح تعليمًا سريًا.

يحتوي هذا الإنجيل المنحول على ١١٤ مقولة، ولكن ما مدى صحّة هذه المقولات؟ وهل تلفّظ بها المسيح؟ لا أحد يستطيع أن يؤكّد ذلك. فالعالم هنري شارل بويش في كتابيه، الأول في البحث عن الغنوصيّة والثاني عن إنجيل توما، نشرهما في باريس سنة ١٩٧٨ يقول: "ينبغي الحذر، فبعض المقولات قد تكون فعلا قديمة جدًا. ولكن من مجموع ١١٤ مقولة يوجد بعض منها معروف في الأناجيل القانونية، والبعض الآخر نجده في أناجيل منحولة أخرى مثل "إنجيل العبرانيين" أو "إنجيل المصريين" وهناك ٤٠ مقولة ينفرد إنجيل توما بها وهي جديدة علينا وخاصّة به.

أما عن مشكلة العلاقة المشتركة بين مقولات إنجيل توما وتلك التي في العهد الجديد فهي مشكلة معقّدة، فنتساءَل:

هل لديهما أصل مشترك؟

ومن أين استقى إنجيل توما هذه المقولات؟

وهل استقاها من الأناجيل القانونية؟

كل هذه الأسئلة تُطرح على اختصاصيّي العهد الجديد وعلى إختصاصيّي الغنوصيّة. فإنجيل توما، بعكس الأناجيل، لا يذكر شيئًا عن حياة يسوع أو الأحداث المهمّة التي مرّ بها، ولكن يريد أن يتخصّص فقط بنقل تعليم يسوع السرّي.

يبدأ هذا الإنجيل هكذا[١]:

"هذه هي الكلمات الخفية التي قالها يسوع الحي ونسخها ديديم يهوذا توما وقال: من يتوصل إلى تفسير هذه الكلمات لا يذوق الموت" (المقولة الأولى، من كتاب "الأناجيل المنحولة" لإسكندر شديد، منشورات دير سيدة النصر نسبية غوسته ١٩٩٩ ص ١٧٣).

إن فحوى رسالة المسيح ترد هنا بشكل أمثال وتشابيه ونبوءات ونصائح للجماعة، وهي مختصرة وقصيرة. ويمكننا أن نقول إن هذه الجمل القويّة تشكل حجر زاوية هذا الكتاب، وهي تدور حول معرفة الذات، وفي الوقت عينه معرفة الله التي تفتح أبواب الملكوت:

"عندما تعرفون أنفسكم، إذ ذاك يعرفونكم وتعلمون أنكم أنتم أبناء الآب الحي. إنما إذا لم تعرفوا أنفسكم، إذ ذاك تكونون في عري وأنتم العري" (مقولة ٣).

إن العري (أو الفقر) يرمز هنا إلى حالة الجهل الذي يُثقل على كاهل الإنسان الجاهل في هذا العالم، وهو يشبه السَكْر أو الخَدَر الذي يصيب النائم كما في المقولة ٢٨، فإذا ما تخلّص الإنسان منه، ببحثه في أعماقه، وعى في الوقت نفسه أصله ومصيره وبدايته، ونهايته وهذا الشخص سيصير واحدًا:

"قال التلاميذ ليسوع: قل لنا كيف ستكون نهايتُك؟ أجاب يسوع: هل كشفتم البداية حتى تسألوا عن النهاية؟ فحيث البداية هناك ستكون النهاية، طوبى لمن يبلغ البداية فسوف يعرف النهاية ولن يذوق الموت" (مقولة ١٨).

إن الوصول إلى المعرفة، يتطلّب نظام حياة مبنيّ على التجرّد والزهد، يسوع هنا يحكم على الجسد واللحم والجنس والإنجاب، وكل روابط تشدّنا بهذا العالم الذي ليس سوى جثّة. النموذج إذن هو الزهد وهو الذي يرتسم في جميع صفحات إنجيل توما من خلال الناسك، المتوحّد.

" قال يسوع طوبى للمتوحدين والمختارين. لأنكم تجدون الملكوت، لأنكم منبثقون منه وستعودن إليه مجددًا " (المقولة ٤٩ وهي ٥٤ في الترجمة العربيّة).

في هذا النص " المتوحّدون" هم الغنوصيّون الذين تقف أغلبية البشر ضدّهم وهؤلاء يغوصون في الجهل، أما الوحي الذي يتسلّمه الغنوصيّ من يسوع، فيجعله شبيهًا به" . قال يسوع من يشرب من فمي يصبح مثلي أما أنا فأصبح ما هو وما هو مخبوء يكشف له" (المقولة ١١٢).

القسم الثالث

نقل رسالة وتقنيّة مؤثّرات

الغنوصيّون والكتابة

تميّز الغنوصيّون بموهبة الكلام. إذ كان آباء الكنيسة يحذّرون الناس من لباقتهم فيتجنبوا الوقوع في فخاخ كلامهم المعسول.

وامتاز الغنوصيّون بالكتابة أيضًا، فالأدب الذي تركوه لنا، يجعلنا أن نلاحظ بين كتّابهم قصّاصين موهوبين في سرد الأساطير، وكذلك فلاسفة، ولاهوتيين أيضًا.

وكان الشكل الأدبي الذي يتبنّونه يتلاءم مع غاية الكاتب، إطار النص المقروء أو المحكي. سواء أكان ذلك في احتفال طقسي وديني، أم في البيت لدى رغبة القارئ الشخصية. وهل كان ذلك يحدث خلال السفر؟ (عرف ذلك الزمان كُتبًا سهلة الحمل، مثل كتب الجيب اليوم، وأشهر كتاب جيب وصلنا هو من القرن الثالث الميلادي: كتاب ماني).

أما الشكل والمحتوى لنص معيّن فيختلف أيضًا باختلاف الجمهور الذي يتوجّه إليه.

ويمكن أن نصنّف النصوص الغنوصيّة إلى نوعين كبيرين:

أولا: النصوص التي توزّع على أعضاء التجمّعات الغنوصيّة أو المريدين، ويمكن أن نسمّيها " النصوص الداخلية " ، وهي تحمل تعليمًا سرّيًا مكتوبًا بحسب درجات تقدّم التلاميذ والمريدين في سلّم الأسرار الغنوصيّة. هذه النصوص هي من أجل الحصول على أسس التعليم.

وهناك نصوص خاصة بالمختارين (الروحانيين) لجماعة ما غنوصيّة، وتحتوي على كشوفات يجب أن تبقى سريّة، وأغلب النصوص الغنوصيّة تنتهي بتحذيرات قاسية ضد كل من يفشي، بلا مبرّر، هذه المواضيع الخاصّة. وتذكر أيضًا عقوبات قاسية تأتي من كائنات مروّعة ومخيفة من أجل حماية هذه النصوص (أنظر مثلا في

نهاية كتب مثل " ألـوجين" (الغـريب) نجع حمـادي ١١/٣، أو " أوكـدواد" أو " الإنيادة" (نجع حمادي ٦/٦).

وبين هـذه الكتـابـات الـداخلية أو الخـاصـة نجـد أيضًـا نصـوصًـا وضعـت للتلاوة الجماعية وأدعية تتوجّه إلى كائنات سماوية أو إلى ملائكة، وهناك أناشيد وصلوات.

ثـانيًا: النصوص الخارجية المراد إستعمالها خارج الجماعة، والغاية منها كسب أتباع جدد وشرح أسس الديانة الغنوصيّة بلا أي تشكيك لهم وعلى أمل إهتدائهم. وهنا يلجأ المؤلف إلى استخدام منطق خارج عن التعليم الغنوصيّ، معطيًا بعض علامات يمكن للمستجدين تقبّلها.

وهناك، أخيرًا، النصوص التي لم يكتبها مؤلفون ينتمون إلى الإيمان الغنوصيّ، ولكنها قد تحمل تعليمًا يتلاءم مع تعليمها، ولهذا استحقت أن تأخذ مكانًا في أدبهم: هناك، على سبيل المثال، جمل حِكميّه ونصائح أخلاقيّة مثل نصائح "سكستس" ن،ح ١/١٢، وتعاليم سلفانس ن،ح ٧/ ٤، والأول كان قد لاقى انتشارًا كبيرًا في القرون الأولى. ومعروف أن سكستس و سلفانس لم يكونا غنوصيِّين. وهناك كتابات ذات نقاط مشتركة مع البناء الأسطوري الغنوصيّ، كالكتب المنسوبة إلى "هيرمس تريسميجست" (الإله هرمز المعظم ثلاثًا) والمحفوظة في الكتاب السادس من مكتبة نجع حمادي.

الغنوصيّون في زمانهم

كانت الإمبراطورية الرومانية، بين القرنين الثاني والرابع بعد الميلاد،خليطًا من أجناس وشعوب وديانات مختلفة ومتباينة جدًا.

أولا: الديانات الثلاث الكبرى في نهاية هذه الحقبة، هي: الوثنيّة واليهوديّة والمسيحيّة. الوثنية ديانة الدولة الرسميّة حتى سنة ٣١٣م، واليهودية ديانة مقبولة، أما المسيحيّة فتقلّبت بين فترات اضطهاد وهدوء حتى إعلان غالير Galère سنة

٣١١، ثم وبخاصة بيان ميلانو لقسطنطينس وليجينس، الذي به أعطى حرية العبادة لكل المواطنين في الإمبراطورية (٣١٣م). في المدن يعيش المسيحيون القادمون من المحيط الثقافي الفلسطيني جنبًا إلى جنب مع ذوي الثقافة الهلّينيّة اليونانية، ويختلطون مع وثنيين رجعيين أو مع وثنيين منفتحين تجتذبهم العبادات الأسراريّة. وهناك أيضًا يهود ومنهم من ينفصل عن تشدّد أقرانه الذين يصلّون فقط في المجمع، فلا يتورّع من التردّد على ممارسة أكثر روحانيّة لليهوديّة. فالفيلسوف اليهودي فيلون الإسكندري في القرن الأول كان قد بنى نظامًا رمزيًا مجازيًا لتفسير الكتاب المقدّس، وقد حظي بنجاح كبير بين يهود الشتات، الناطقين باليونانية.

ولم تكن هذه الديانات تتطوّر في حيّز مغلق، فالمنظّرون واللاهوتيّون يخوضون مناظرات وجدالات كلاميّة، ويتبادلون الكتابات التهجميّة والدفاعية، ويلتقون في أكاديميّات وهم يعرفون بعضهم بعضًا، قد يحتقرون بعضهم بعضًا أو قد يتسامح بعضهم مع البعض. وهناك في العموم خليط دينيّ يحدث بين مختلف النظريات الفلسفية والتقاليد الشعبية والعقائد الإيمانية، إذ إن المجتمع، يومذاك، كان بمثابة نسيج متنوّع الألوان، متشابك الخيوط، ينعقد حينًا وينحل حينًا آخر، فيمتلئ بعلامات زمان غنيّ فيه خطوط تتباعد وتتقاطع باضطراب وتعقيد.

ثانيًا: بجانب هذه الديانات المتنوّعة والكبيرة، يكثر هنا وهناك عدد كبير جدًا من العبادات الأسرارية والمعتقدات الصوفية، وإن كانت هذه تحمل بعض بقايا معتقداتها وتقاليدها الأصلية ومناشئها، إلا أن هذه العبادات قطعت الإمبراطورية الرومانية شمالا وجنوبًا، حملها مسافرون وتجّار وعساكر. هكذا كان الأمر مع عبادة الإله إيزيس الآتية من مصر، إذ وجدت لها نجاحًا كبيرًا في روما، خصوصًا بين نساء الطبقة النبيلة. أما عبادة الإله "ميترا" (إله النور) التي ولدت في بلاد فارس، فتنتشر في أرجاء الإمبراطوريّة الأربع، وتتبع الجيش في حلّه وترحاله. وهناك عبادة الإله هيرميس تريسميجست (أي هرمز المعظّم ثلاثًا). وهي عبارة عن خليط ذكيّ بين

التقاليد المصرية والفلسفة اليونانية مع قليل من النظريات اليهودية، هذه الديانة يكثر أتباعها حول حوض البحر الأبيض المتوسط. هناك أيضًا الممارسات السحرية المرتبطة بالعادات المحلّية والتي تتعاطاها الطبقات الشعبية.

هذا العالم القديم المنتهي، يتحمّس للأفكار الدينية كثيرًا، فإنسان ذلك الوقت يبحث، وعلى مستويات عدّة، عن مدخل إلى علاقة مباشرة مع الألوهيّة، إمّا بوسائل سحريّة أو إستشفائية، أو بمعتقدات يراد من خلالها إجتذاب حسن الطالع أو المساعدة الإلهيّة في ظروف معينة، كلّ هذا قد يعدّه مفكرو ذلك الزمان مجرد نظريّات فكريّة تضع الإنسان وجهًا لوجه أمام إلهه.

ما هو موقع الغنوصيّين في هذا الإطار، من أين أتوا وما هي أصولهم؟

لا يوجد هناك جواب واحد، فالغنوصيّون أتوا من آفاق وبلاد مختلفة: هناك غنوصيّون يونانيون، ومصريون، وسُريان، وهناك كثيرون في روما وفي مقاطعات الإمبراطورية البعيدة.

إن دراسة الأدب الغنوصيّ تكشف هذا التنوع في أصولهم وفي الثقافة التي ورثوها، والاوساط التي ترعرعوا فيها، والأجواء الدينية التي تأثّروا بها. إن أعمالهم بمثابة مرآة لشخصيتهم أو لظلم التاريخ لهم، مما جعلهم يختفون في غياهب النسيان. فكل مؤلّف لديهم يحمل معه تراثه وحصيلة ثقافته الأصيلة، ويقوم بإعطائها، من خلال كلماته، حلّة جديدة ورسالة مُعلنة.

أ - الغنوصية واليهودية

لقم برز غنوصيّون أصلهم يهودي، وهذا مما لا شكّ فيه، فعلماء الهرطقات يذكرون من بينهم سمعان وميننذر Ménandre اللذين ولدا في السامرة. ونستجلي من خلال بعض الإشارات الجغرافية، وجود معارضة سامريّة لليهودية السائدة في فلسطين. وما نعرفه عن تعليم هذَين المعلّمَين يبيّن أنهما من جذور يهودية أكيدة. إلا أنه كان لديهما

تقاليد خاصة وممارسات ناقدة وقاسية على اليهوديّة، فأعادا شرح قصّة الخلق الواردة في سفر التكوين، وقلبا جميع الملائكة إلى شياطين. ويصحّ قولنا في أعلاه بشأن يهوديّ آخر هو ساتورنان الأنطاكي الذي قرأ بشكل جديد خلقة آدم. إن هذه المواقف المعارضة كانت أمرًا عاديًا في داخل اليهوديّة بسبب تباين وتنوّع التيارات فيها.

أما المؤلفون المجهولون الذين اكتشفنا كتاباتهم في نجع حمادي، فعدد كبير منهم يعرف القصص والتقاليد اليهودية، وتاريخ الخلق والشخصيات الكتابيّة مثل آدم وحواء يُسيل حبرًا كثيرًا لدى مؤلفي أسفار مثل "أقنوم أولياء الملائكة" L'Hypostase des archontes ن.ح ٢/ ٤، و "كتاب الأسرار ليوحنا" ن.ح ٢/ ١ و ٣/ ١ و ٤/ ١, وهناك غنوصيّون كثيرون يعرفون، عن ظهر القلب، أسفار العهد القديم، ويحبون ممارسة تأويل الكتاب المقدّس بشكل ملفت للنظر. وهم لا يغيب عنهم أيضًا الأدب المنحول، الذي انتشر في الفترة ما بين العهد القديم والجديد والذي تطوّر على هامش اليهودية[١٢]. وهذه اليهودية يمكن أن نقول إنها مثل خزين للتقاليد والأساطير والصور، إستقى منها الغنوصيّون بكثرة. وهذه المؤلفات اليهودية، التي كتبت ما بين العهدين، القديم والجديد، انتشرت انتشارًا كبيرًا، وتُرجمت إلى لغات عدّة، وكان لها تأثير قويّ. نذكر منها: سفر احنوخ، الذي كان واسع الإنتشار. والذي استشهد به كثيرًا مؤلف الكتاب الغنوصيّ "زسترين" Zosterien ن.ح ٨/ ١.

وكان في الأوساط اليهودية الهامشية، الشكل الأدبي الأكثر انتشارًا هو أسلوب الرؤيا، فالمؤلفون الغنوصيّون يحبون بناء النظريات وتأليف الكتب التي تعتمد على القلق والخوف، فيخلطون الوحي والكشوفات بما يخص المستقبل والعالم الآتي ووصف نهاية الزمان.

وقد كانت البدعة اليهوديّة الأسينيّة، التي عاشت على ضفاف البحر الميت منذ القرن الأول ق.م، قد قامت بتأليف كتب بدا فيها تأثّرها بالثنائية، فيصطدم النور بالظلام، في الكون والعالم كما في قلب الإنسان. ولدى بعض كتّاب الغنوصيّة آثار لهذه الكتابات.

لقد كانت البدعة الأسينيّة تكرّم بخاصّة، الملائكة باعتبارهم الوسطاء بين الله والإنسان، ونجد هذا الاهتمام بالملائكة أيضًا عند الغنوصيّين. في "كتاب التنشئة الكبير" مجموعة "بروس" وفي "إنجيل المصريين" ن.ح ٣/ ٢، ٤/ ٢، وكتاب اللوجين (الغريب) ن.ح ١١/ ٣.

ونجد في الأوساط السحرية اليهودية أيضًا، إهتمامًا بالرياضيات، أي علم الأرقام، وعبرت منهم، بحسب شهادة الآباء، إلى الغنوصيّين من أمثال مرقس الساحر وتيئودوت اللذَين يلجآن إلى استعمالها في نظامهم الغنوصيّ.

ب- الغنوصية والوثنية

في القرون المسيحية الأولى، قامت مدارس فلسفية تهتم بدراسة مؤلفات أفلاطون، وتعطي محاولة لتأويلها تأويلا رمزيًا وأحيانًا تأويلا صوفيًا. ولهذا تسمى هذه الفترة بالأفلاطونية المتوسطة، ويشتهر في هذه الحقبة مؤلفون مثل البينوس (أو الكينوس) الذي يضع في خضمّ القرن الثاني نوعًا من اللاهوت السلبي: فيقول لا يمكن الكلام عن الله بأي شكل من الأشكال، فالله لا يعرفه أحد، ولا يمكن لأحد أن يصفه، واللغة البشرية يجب أن تكتفي فقط بقول ما ليس هو، ولا يمكن لأي تعبير، من اختراع الإنسان، أن يليق بالله. إن هذا الأسلوب اللاهوتي كثيرًا ما استهوى الكتّاب الغنوصيّين وتبنّوه كأسلوب خاص بهم، وقام بعضهم بتطويره بعناية فائقة، فتركوا لنا صفحات كثيرة في هذا المجال. أما آخرون، فاكتفوا بالتكرار والنقل، على غرار ما فعل بعض المسيحيين والوثنيين، فنقلوا صورًا وقوالب جاهزة من كتب مدرسيّة. وقد وصلتنا مجموعات أقوال مستلّة من الحكمة القديمة، وكان هذا الأسلوب منتشرًا جدًا في الإمبراطورية الرومانية، وكانوا يرتّبون هذه الأقوال على شكل فصول (الإله، الإنسان، العالم، المرأة...) أو نظّموها حسب الترتيب الأبجدي، فكانوا يعملون على شكل قوائم إستشهادات جاهزة للإستعمال للخطباء والكتّاب والمحاضرين الذين كانوا يريدون أن

يضعوا بعض التوابل العلمية لما يقدّمونه للناس.

في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، ومع الفيلسوف أفلوطين، إتّخذ الفكر الوثني منعطفًا هامًا، إذ وضع هذا المفكر المصري الكبير، أسس بناءٍ فلسفي محكمٍ مع بقائه أمينًا للفكر والتراث الأفلاطونيَين. أخذ يجدد الفكر بوضع أسس مرحلة مهمّة من التاريخ القديم، وسوف يمتدّ تأثيره حتى القرون الوسطى، فإنه بحقّ مؤسس الأفلاطونية الجديدة.

لقد كانت كل النخبة الفكرية في روما تهرع إلى سماع محاضرات أفلوطين، وحتى الغنوصيّون كانوا يسمعونه بشغف وارتياح. فقد كان تعليم أفلوطين يعتمد على البحث عن الأنا. وهذا ما كان الغنوصيّون يريدونه، وكانوا يعدّون ذلك هدفًا لهم. لكن كان هنالك اختلاف كبير معه، فأفلوطين يقول إن معرفة الله هي ثمرة بحث فكري طويل، أما الغنوصيّون، فبالعكس، يقولون إن هذه المعرفة تنبع من كشف إلهي يخصّ به بعض المختارين فقط.

يصف أفلوطين العالم المعقّد كانبثاقات تنبع من الواحد الذي هو نبع الوجود، والنور، وهو الذي كلّما ابتعدنا عنه، ضعفت قابليّة النور فينا. وقد لجأ بعض الغنوصيّين إلى فكرة أفلوطين هذه وتبنّوها وطوّروها وأدخلوها في نظام أسطوري يدور حول كينونات إلهية تلك التي تكوّن الملء (البليروما) أو الكل الشمولي.

إن لغة أفلوطين وتعابيره غالبًا ما استُخدمت في خدمة الأسطورة الغنوصيّة، وغُطّيَت بصبغ، كثيف أو رقيق، من شخصيات أسطورية موجودة في العالم الغنوصيّ. بعض نصوص نجع حمادي المتأخّرة تأثرت بالأفلاطونية الجديدة، مثل مبحث (زوستيرن) ن.ح ٨/١، ومارسانيس ن.ح ١٠/١، واللوجين (الغريب) ن.ح ١١/٣, إن هذه النصوص لم تكن مجهولة لدى الفلاسفة المحيطين بأفلوطين، لأن فرفوريوس، مروّج كلام افلوطين، يذكرها، لكن الأفكار الغنوصيّة لم تنجح في التغلغل بين الجماعات التابعة لأفلوطين. ويمكننا أن نستنتج من هذا أن هناك بعض الملاحظات المتفرقة لدى

المفكّرين الوثنيين ضد الغنوصيّين، وفي كتابات أفلوطين بعينها، في القسم الثاني من مجموعة كتبه المسماة الإنيانذة (أي الكتب التسعة). أفلوطين يتّهم الغنوصيّين بالثرثرة وخلط النظريات الفلسفية، واستعمال صور أسطورية، وبالدعاء إلى الملائكة، وبملء نصوصهم بأدعية وجمل سحريّة. أما الطابع الشرقي الشعري والصوري فغريب على العقلية اليونانية، وهذا ما كان يزعج، بشكل كبير، المفكّر المصري الهلّيني المنهجي والشديد الدِقّة.

ج- الغنوصيّة والمسيحيّة

إن شكل النصوص، التي جاءتنا من عدد كبير من الغنوصيّين، متأثّر تأثّرًا كبيرًا بالمسيحية، فقسم كبير من هذا الأدب يضع أبطاله ضمن التاريخ المسيحي المقدس، ويأتي ذكر يسوع واتباعه في المرتبة الأولى. وبين يسوع المعلم والتلاميذ حوارات تتمحور حول مشكلة العالم والله والإنسان.

لكن بماذا يختلف الأدب المسيحي عن هذا الأدب الغنوصيّ المتأثّر بالمسيحية؟

وكيف السبيل إلى التمييز، في هذا الكم الهائل الذي يخلط مع كتب العهد الجديد القانونيّة، الكتبَ المنحولة المكتوبة في أوساط غنوصيّة؟

فهنا تعليم ينبع في كلّ منعطف وكل جملة، والتعليم الغنوصيّ يشكّل خطرًا مزعجًا للمسيحيين، إذ إنه يخلط كثيرًا بين المسيحية والغنوصيّة. فالتعليم الغنوصيّ (المشوب بالمسيحية) مثلا يقول: إنّ العالم شرّير وإن الإنسان يجب أن ينفصل ويبتعد عنه، وإن الله الحقيقي مجهول لا أحد يمكن أن يعرفه[١٣]، وإن المسيح هو مرسَل الله الحقيقي. والخلاص الذي أعلنه المسيح لن يتمّ، بحسب هذه النصوص، إلا في نهاية الأزمنة. إن الغنوصيّين، الذين يتبعون هذه التعاليم، هم منذ الآن مخلَّصون إذا سمعوا هذا الوحي وحملوا هذه المعرفة. فالغنوصيّة إذن إتخذت، بسبب هذا الإتجاه، مكانها في اللاهوت، واستخدمت وسائل فلسفية وبَنَتْ بناءً فكريًا منطقيًا لفهم هذا العالم

العلوي الذي تسكنه كائنات وانبثاقات إلهية.

يحمل بعضُ هذه الانبثاقات، في الكتابات الغنوصيّة لفالانتين، شكلاً مسيحيًا واضحًا: فالمسيح والكنيسة يجمعهما فالنتين في زوج واحد، وكلاهما انبثاق من الآب، ومعه يشكّلان ثلاثية أصيلة. برغم هذه الظواهر، كان الغنوصيّون - على الأقل هؤلاء الذين نسميهم غنوصيّين مسيحيين - خصومًا أشداء للكنيسة الكبرى، وبرغم وجود أشياء مشتركة بينهم وبين الكنيسة الكبرى، إذ يمارسون الطقوس والأسرار ولكنهم يعطون كل شيء تفسيرًا مغايرًا مختلفًا. ويقول بعض مؤرخي الهرطقات إن الغنوصيّين كانوا يحيّدون الأسرار عن معانيها بل حتى يقومون بإهانة هذه الأسرار بالكفر بها. إبيفان، مثلا، يتّهمهم بممارسة القربان المقدس بشكل مهين كافر ضد جسد ودم المسيح، ويستعيضون عنها بمني رجل وبدم امرأة ويرفعونهما قرابين نحو السماء! لكن ليس لدينا أي شيء في المصادر الأصليّة ما يؤكد صحّة هذه الأقوال. فالغنوصيّون من ذوي الإتجاه الفالانتيني يذكرون الأسرار التقليدية ويضيفون إليها سِرَّ الخِدر أو غرفة العُرس، فيقولون: "إن الرب فعل كل شيء في السر: العماد، والمسحة بالزيت، والافخارستيا، والخلاص وغرفة العرس" (إنجيل فيليب ن.ح ٢/ ٣، ٦٧، ٢٧/ ٣٠).

ويمكننا أن نتساءل: هل كانت هذه الأسرار تقام بشكل روحي فقط أم كانت تقام طقسيًا؟

يقول الآباء المدافعون عن صحّة المعتقد ضد الهرطقات، إن سرّ غرفة العرس كان حجّة ومبررًا، لدى بعض أتباع البدع، لممارسة الإنحرافات والأعمال الجنسية. لكن هناك شهادات مباشِرة تذكر أن هذه الطقوس كانت تُمارس بشكل رمزي، فسرّ غُرفة العرس يُنكر إتحاد الأجساد ويعلن عن إتحاد الروح والنفس.

وأمام الكنيسة الكبرى تقف الكنيسة الغنوصيّة مدّعية أنها الكنيسة الحقيقيّة والمبنية على التقليد وعلى السلطة السرّية التي تعود مباشرة إلى بطرس الرسول، لكن هذه الكنيسة الغنوصيّة لا تهتمّ بالتعاقب الرسولي فهي ليست من هذا العالم. كان

الغنوصيّين يعتقدون أنهم قد نضجوا داخل المسيحية، وعدّوا أنفسهم فقط المسيحيين الحقيقيين، وكانوا يطلقون إسم المسيحيين على أنفسهم ولا يسمّون أنفسهم غنوصيّين - إذ إن هذا الإسم أطلقه عليهم خصومهم. فكان من الخطر بمكان على أتباع الديانة المسيحية التقليدية أن يدّعي هؤلاء أنهم مسيحيون، إذ كانوا يُعَدّون كأعداء خطرين يقفون على هامش المسيحيّة، يستفيدون منها فقط، محاولين بوسائط شبه -لاهوتية، أن يبرروا ما لديهم من إدعاء ومن تفاسير مُحكمة وداهية بخصوص الكتاب المقدس، وكانت الطريقة الفضلى للتخلص منهم، بأن يطردوهم من الجماعة المسيحية، ويتهموهم بالبدعة والهرطقة ويعدّوهم خارجين عن المسيحية.

د- الغنوصية في الإسلام

عندما اجتاحت الجيوش العربية سورية ومصر في القرن السابع الميلادي كان تيار " الغُنوصية " قد انتهى منذ أمد بعيد ، أوجه الذي حضي به في القرون القديمة في هذين البلدين. لكنه كتيار خسر في مُجابهة الكنيسة الكبرى؛ التي ترسّخ فيها لاهوت مناوئ للغنوصية. فاختفت طوائفه مثل بَربلوغُنوصية وحَنشيّة (عبّاد الحيّة) والفالانتينية؛ وقد عرفنا ذلك بفضل اكتشاف مخطوطات نجع حمادي في صعيد مصر في عام ١٩٤٥ والتي على الأرجح هي من بقايا جماعات غنوصية عاشت في صعيد مصر في القرن ٤ م، وأضطرت إلى وضع مُدوَّناتها في مأمن من مطاردات الكنائس الأرثوذكسية.

أما خارج حدود الإمبراطورية الرومانية، وعلى الجهة الأخرى من نهر الفُرات، فكان الأمر مختلفًا. فهناك حيث لم تصل يد كنيسة الإمبراطورية البيزنطية، استطاعت جماعات، في ظل حكم الملوك الساسانيّين، أن تبقى برغم أنها عدّت هرطوقيّة، ككل أنواع الفرق الغُنوصية ذات الأصول المسيحية أو اليهودي. وعلى الرغم من اضطرار المانويين إلى التراجع أمام الإضطهاد المسيحي لهم في الإمبراطورية الرومانية، إلا أنهم استطاعوا البقاء هناك. إذ كان مقر زعيمهم في بابل، التي أمست منذ أمد بعيد

مدينة صغيرة غير ذات أهمية مقارنة مع العاصمة الجديدة قطيسفون (المدائن). وحتى المندائيون (وهم متأثرون بالغنوصية جدًا) كانوا في ذلك الوقت يعيشون في تلك النواحي الجنوبية من العراق (وما زالوا فيها حتى اليوم). لا عجب إذن أن يحتك الإسلام - حديث النشأة - بالتعاليم الغُنوصية في العراق تحديدًا وأن يطلع عليها.

بعد انتصار القائد العربي سعد بن أبي وقاص على الفارسي رستم، في معركة القادسية (غرب الفرات الأسفل، قرب الكوفة التي أنشئت فيما بعد)، في الأول من حزيران لعام ٦٣٧م، أصبح العراق مكشوفا للفاتحين المسلمين: وفي الشهر نفسه إستطاع سعد إحتلال العاصمة الساسانية قطيسفون من دون قتال. وقد شغلت الأخبار حول فتح العاصمة الغنية في التواريخ العربية مجالا واسعا، ثم بعد فترة ضعف اهتمام المؤرخين بـ "المدائن" - كما كان يسمي العرب كل المجموعات السكنية واسعة النطاق -، لأنها فقدت فعلا، وبعد فترة قصيرة من الزمن، مكانتها كعاصمة، وكذلك لأن العرب لم يستوطنوها بشكل يُذكر، حيث حل مكانها المعسكران العربيّان البصرة (أنشئت بين عامي ٦٣٧ و٦٣٨م) والكوفة (أنشئت بين عامي ٦٣٨ أو ٦٣٩)، ومنهما تابع العرب فتوحات الهضاب الإيرانية في السنوات اللاحقة. وقد أولت كتب التاريخ العربي اهتمامها، بطبيعة الحال، بالأوضاع والأحداث في هاتين المدينتين العربيتين قبل كل شيء. غالبا، وبهذا فقط، نتعرف شيئًا من تعاليم الغنوصيين والمعلمين عندما يظهرون في البصرة أو الكوفة.

ما كان للديانات الغنوصية وفرقها في منطقة ما بين النهرين ما يدفعها أن تأمل من الإسلام خيرًا؛ إذ أن الثنائية ظاهرة أو مستترة فيها وهي القائلة بوجود الإله الأول والإله الفاطر (الخالق)، أو المذهب القائل بانتشار الإله الأعلى المشكل لأعداد كثيرة من الفيوضات Emanations والأقانيم Hypostases كما تتسم بها جميع مدارس الغنوصية، كانت تشكل تماما النقيض الأوحد لأهم ما في الإسلام من عقيدة، وبل لعقيدته الوحيدة، ألا وهي "التوحيد". إن اسم الفعل، والذي يعني "الإقرار

بالوحدانية" ، يعني (بالعربية: واحد = "واحد أحد")، أي الشهادة بوحدة ووحدانية الله المطلقة التي تشكل محور الدين الإسلامي، والتي ذهبت بها المذاهب الفقهية الإسلامية المتأخرة فيما بعد إلى درجة أن هذه المذاهب لم تعد تقرّ لصفات الله ولنعوته حتى بوجود ذات خاصة. وهكذا لم يعد هناك مكان لانتشار إله مشكل لرذاذ من الأقانيم والفيوضات. ولذلك وبعد فترة سقط الغنوصيون أمام الاضطهادات الإسلامية. كما تمّت إبادة المانوية أو دحرها خلف الحدود؛ فاضطرت بذلك إلى للجوء إلى أواسط آسيا (خصوصًا قرب طرفان غرب الصين). أو في مناطق الحدود الإسلامية البيزنطية على شمال الفرات في إقليم مدينة Tephrike تفركة التي تسمى بالعربية بـ "دبركي" ، وهي اليوم تابعة لتركية وتسمى بالتركية بـ Divigi، نشأت فيها في القرن السابع الميلادي فرقة الباوكولية الثنوية (الثنائية) الأرمنية، التي رحّلت حكومة الإمبراطورية الرومانية أتباعها في عام ٩٧٠م، وبشكل جماعي، إلى أوربا، والذين سبّبوا في تكوين (البغراطية، أو البوغوميل bogomiles في بلغاريا، وأحدثت أثرًا في كرواتيا وشمالي إيطاليا (الباترية) Patarenertum وحتى جنوب فرنسا حيث بلغت حركة الكتاريين أو الألبيجيين في القرن الثاني عشر الميلادي آخر ازدهار ما يسمى بـ "المانوية المحدثة" وهي تسمية غير دقيقة.

إن اضطهاد غنوصيي منطقة ما بين النهرين لم يبدأ - ولا شك - بعد الفتح العربي مباشرة. إذ لم تكن الاضطهادات على مدى حكم خلفاء بني أمية في دمشق (حتى سنة ٧٥٠م)، وعلى ما يبدو، منظمة. كان وُلاة هؤلاء الخلفاء في العراق يلاحِقون أحيانا الزنادقة المسلمين ذوي التعاليم القائلة بالغنوصية فقط. لكن بعد أن اتخذ العباسيون مقر حكمهم في العراق وأسّس الخليفة المنصور مدينة السلام - بالقرب من البلدة القديمة بغداد - في عام ٧٦٢م كمقر جديد له، بدأت اضطهادات جسيمة ضد الزنادقة - كما يسمي العرب الغنوصيين الهراطقة وخصوصًا المانويين منهم. وبلغت موجة الاضطهادات هذه ذروتها في السنوات ١٦٣ - ١٧٠هـ/ ٧٨٠-

٧٨٦م في عهد المنصور ابن المهدي (حكم ما بين عام ١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م)، أب هارون الرشيد، وفي عهد الهادي (١٦٩-١٧٠هـ/ ٧٨٥-٧٨٦م) أخ هارون الأكبر. وأصاب هذا الإضطهاد العارم المانوية إصابة قاسية. لا شك في أن المصادر العربية ظلت حتى القرن التاسع تذكر شخصيات ذات مقام كبير، وكان بينها غالبا مفكرون أتهموا بالزندقة وعوقبوا عليها أحيانا بالقتل، ولكن يتعذر في معظم الحالات الكشف عن نوع مروقهم الكامن وراء زندقتهم المزعومة. وعلى كل حال إستمر ذكر أسماء زعماء الفرقة المانوية في المصادر العربية حتى في عهد أبناء هارون الرشيد، المأمون (حكم في الأعوام ١٩٨-٢١٨هـ/ ٨٣٣-٨٤٢م). وفي العقود الأخيرة أخذت أعداد المانويين فعلا بالتراجع السريع: "وآخر ما انجلوا في أيام المقتدر (حكم ٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٠٨-٩٣٢م) فإنهم لحقوا بخرسان خوفا على نفوسهم"، كما يروي ابن النديم (٣٧٧هـ/ ٩٨٧-٩٨٨م) الذي عرف شخصيًا في القرن العاشر فرقة مانوية صغيرة في بغداد: "فأما مدينة السلام (أي بغداد) فكنت أعرف منهم أيام (الأمير البويهي، حكم في الأعوام ٣٣٤-٣٥٦هـ/ ٩٤٥-٩٦٧م) معز الدولة نحو ثلثمائة وأما في وقتنا هذا فليس بالحضرة منهم خمسة" إذ أن عمليات الإعدام والهجرة والدعوة إلى الإسلام كبّدت ما بين القرن الثامن والعاشر الميلادي الزنادقة - ومن بينهم أيضا، إلى جانب المانويين بالتأكيد، فرق غنوصية أخرى - خسائر فادحة، وأدت أخيرا إلى تلاشيهم. واستطاعت الطائفة المندائية وحدها والتي كان المؤلفون المسلمون قد غفلوا عن ذكرها أن تستمر في الحياة في جنوب العراق - إلى يومنا هذا.

وإلى جانب مقاومة الإسلام للزندقة بشكل علني، كانت هناك مقاومة أخرى لا تقل حدّة عن الأولى، هذا يعني مقاومة محاولة الهرطقة الغنوصية حماية نفسها بثوب إسلامي وذلك بقيامها بتأويل خلاصة الوحي القرآني الحقيقي وتفسيره تفسيرا غنوصيا. فاستطاعت الغنوصية، في الفترة المتأخرة من العصور القديمة، بوعيها

العالمي أن تنفذ إلى التراث الديني الوثني، واليهودي، والمسيحي، والإيراني، وأن تغيّر منه؛ وما كانت الرسالة الإسلامية لتسلم من مثل هذه المحاولات. إذ لم يكن لدى الإسلام، حديث النشأة، نظرية فقهية كاملة خاصة به بعدُ، لمواجهة هذه التأثيرات الخارجية الغريبة عنه؛ ففي القرن ٢ هـ (٨ للميلاد)، ومع إقبال المؤمنين الجدد المتزايد، بدأ الإسلام الغنوصي ينتشر في العراق. وببدء مقاومة التعاليم التي اعتبرت غريبة عن الإسلام، تكوّن الفقه المتشدّد وخاصة الشيعة الإمامية المتشدّدة؛ حيث وسمت هذه الشيعة المتشددة تعاليم الغنوصيين في صفوفها بـ "الغُلوّ"، ووضعتهم جانبا كـ "هراطقة" وأخيرا لعنتهم كطائفة موجودة وجودًا هامشيًا.

لقد ظهرت التعاليم الغنوصية بثوب الإسلام عند نهاية القرن الأول الهجري/ ٧ الميلادي، وبشكل أقوى في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، في العاصمة القديمة المدائن "قطسفون"، وكذلك بعد فترة وجيزة في الكوفة العربية. وكان معظم هذه الفرق، والحلقات والمجموعات الصغيرة نتعرف عليها عادة من مخطوطات أعدائها وحسب، من المؤرخين الإماميين (الشيعة) والسنة للملل والنحل، إختفت بعد فترة أو ذابت في مجموعات أخرى. إلا أن قلة قليلة منهم إستطاعت أن تستمر بالبقاء غالبا في مناطق متاخمة للعالم الإسلامي إلى يومنا هذا؛ إن هؤلاء يشكلون مع المندائيين البقية الباقية الوحيدة من الغنوصية.

- تحديد الغنوصية في الإسلام

استخدم مصطلح "الغنوص الإسلامي" باحثون في الدراسات الإسلامية منذ مطلع القرن العشرين، ولكن بمضمون مختلف جدًا، وأحيانا بمعنى غير واضح على الإطلاق. فهكذا لا تتناول "دراسات حول الغنوص الإسلامي" لـ "إرنست بلوشت" E. Blochet (ROS 2-6, 1908-1915) أي شيء من الغنوص الحقيقي، إنما تتناول استمرار الهرمسية؛ أما إنيانتس غولدتسيهر Goldzieher فقد تبيّن له وجود

"عناصر أفلاطونية محدثة وغنوصية في الحديث" (ZA22، ١٩٠٩)، ولكن بدون أن يربط فعلا ما بينها وبين فرق غنوصية غير إسلامية؛ أما أسين بلاثيوس Asin Palacios في "ابن مسرة ومدرسته، ١٩١٤" Abenmasarray Suescuela فلقد أطلق المصطلح "غنوص" على التصرف الإسلامي فقط.

خص هانس شيدار H.Schaeder الخلفية الغنوصية لفرقة الإسماعيلية بالذكر قليلا. فقد أشار في محاضرته "ناصر خسرو والغنوص الإسلامي" (لخصت في ZDMG دورية الهيئة الألمانية للمشرق، مجلد ٧٨ لسنة ١٩٢٤)؛ وفي مقالة له عنوانها "الرؤية الإسلامية للإنسان الكامل، أصلها وبنيتها الشعرية" (ZDMG مجلد ٧٩، لسنة ١٩٢٥، ص١٩٢-٢٦٨)، إلى أن هذه التصورات موجودة قبل الإسلام، إذ تدل عليها قصص تأريخية - دينية وموضوعية كثيرة.

أدى اكتشاف النص الفارسي لـ "أم الكتاب" المتداول في منطقة بامير هندوكوش ومعرفته في ثلاثينيات القرن الماضي إلى اكتساب مصطلح الغنوص الإسلامي بعدًا جديدًا جدًا. هذا الكتاب الذي كان قد اكتشفه باحثون وموظفون روسيون مع بداية هذا القرن، حلله فلادمير إفانوف عام ١٩٣٢ في مقال ابتدائي له عنوانه "ملاحظات حول أم الكتاب لإسماعيلية وسط آسيا" REI 6, نشر في Notes sur I'Ummul-Kitab des Ismaeliens de l'Asie Centrale وطبع في دورية Der Islam 418-419.

لكن لويس ماسينيون Louis Massignon هو أوّل من قيّم هذا النص وبشكل صحيح. فمقالاته "سلمان باك والبدايات الروحانية للإسلام الفارسي" (١٩٣٤)، و"أصول ومعاني الغنوصية في الإسلام" (١٩٣٧)، و"الشعائر الغنوصية الفاطمية في الإسلام الشيعي" (١٩٣٨)، هي في الحقيقة الأولى التي افتتحت البحث علميًا للغنوص الإسلامي. وأضاف ماسنيون، وعلى وجه التخصيص في المقالة الثانية سالفة الذكر، إلى (أم الكتاب) الذي طبع قبل ذلك بعام، وأبرز مزاياه الغنوصية من خلال

مواضيعه الأساسية، موردًا: " القيمة الرمزية لحروف الأبجدية،... تقسيم تأريخ العالم إلى دورات تطابق الحلول الجديد، ناس منتظمون في طبقات مرتبة يستدعون للخلاص بعد هبوط يحجز الأرواح - أي ملائكة هابطين - في أجساد فانية ". تناسخ الأرواح، عودة المخلصين إلى الكواكب، ظهور الدوسيتية (أي الشبهوية أو المظهرية) Doketismus، وعداوة المرأة (الميزوجينية) Misogynie، وتفسير الكتاب رمزيا؛ كل هذا يعرف كمعالم أحادية خاصة ذات نمط غنوصي. وفضلا عن ذلك أبرز ماسنيون مؤكدا علاقة هذا النص الفريد بالمذهبيين المورفيين فقط، من خلال الكتب المؤرخة لطبقات الملل والنحل، مثل: " المغيرة، وأبو الخطاب، والفرقة المخمّسة "، وكذلك بتعاليم النُصيرية أو العلويين، والإسماعيليين والدروز. لقد رأى ماسنيون بأن أعلام التصوف الإسلامي كالحلاج العراقي أو ابن سبعين الإسباني هم ورثة لهذا التراث الغنوصي الذي اعتبره متأثرا جل تأثر بالمانوية.

تتسع دلالة مصطلح الغنوص الإسلامي لدى هنري كوربان Henri Corbin أكثر مما هي لدى ماسنيون: ففي محاضرته " من غنوصية العصور القديمة إلى غنوصية الإسماعيلية " التي ألقاها عام ١٩٥٦ في روما يظهر الغنوص الإسلامي في أشد تجلياته المتنوعة، كشكل خاص محلي لـ "ديانة عالمية" لها تأثيرات غنوصية- روحانية، حتى يومنا هذا. ديانة يظهر كوربان نفسه متأثرا جدًا بمضامين عقيدتها، متجاوزا بذلك الاهتمام العلمي. ولكن ذلك لا يعيقه في تتبع الطرق التأريخية لتبلور هذه الديانة العالمية. ومثلما ينوّه عنوان محاضراته، فهو يعزو بتعاليم أو الكتاب والإسماعيلية - بقدر ما كانت معروفة في ذلك الحين - إلى غنوصية العصور القديمة. ولا يستطيع كوربان البرهنة على فرضيته، كما يقر هو بذلك؛ فهو يقتصر البحث على مراقبة موضوع بعض المركبات الظواهرية Motivkomplexe التأله اللا أدري Tgeso agnnostos، جسد الصانع الفاطر (الخالق) Figur des Demiurgen، المخلص المخلص Erloster Erloster، الفيضية أو نظرية الفيض Emanatismus،

آدم التشبيهي السماوي Adam - Anthropos Himmlicher، عمود النور Licht-saule، جسد الحكمة Figur der Sophia، الأخاميس Pentaden، والأقمار Syzy-gien التي ألحق بها مماثلات من مذاهب غنوصية تعود إلى العصور القديمة وأخرى يهودية ومسيحية: مثل (الفالانتينية، والمانوية، ودين الحكمة Pistis Sophia، والإبيونية، وإخنوخ. يفترض كوربان صلات مباشرة وفرت عن طريق كتب أو أشخاص، وربما من خلال البرديصانيين (الفدائيين) العراقيين، حتى لو تعذر إثباتها بالتفصيل: "بحسب وضعنا المعرفي الحالي فإن المماثلات البنيوية، أكثر أهمية من الصلات الطفيفة ما بين أشخاص، لأنها تدلنا على طريق مستمر من غنوصية العصور القديمة إلى الغنوص الإسماعيلي"، وقد استمر الغنوص الإسلامي كما يرى كوربان في التصوف أيضًا - في التصوف الإسلامي - ؛ إذ أن السهروردي أو ابن عربي يتجليان كورثته المباشرين.

ماسنيون وكوربان إذن هما أول من ضمن مصطلح الغنوص الإسلامي بمعنى موضوعي ولكنهما، في الوقت نفسه، أوسعاه جدًا لدرجة أن أصبح في خطر أن يفقد قوّته البينة كاملة، إلى حد أنه في النهاية أصبح يطلق على كل شيء لا يتحرك ضمن حدود التزمّت السُني.

لكي أجتاز هذا الخطر سوف أعمل فيما يلي على تحديد قوي لهذا المصطلح وأحتفظ له - مستثنيا التيارات الهرمسية، والقبلانية، والصوفية، والروحانية - بتلك التعاليم والفرق والنصوص التي تلتحق حسب تمييز هانس يوناس H. Jonas بالغنوص الأسطوري (على خلاف "الفلسفي")، والمميزة بـ (أسطورة كوزمولوجية "نشوء كونية" سوتيريولوجية "عقيدة النجاة") ذات أصل غنوصي، أسطورة غريبة عن الوحي القرآني. أصول هذه الأسطورة هي - مثلما في الغنوصية التي تعود إلى الفترة المتأخرة من العصور القديمة - نمو ذلك الإله المجهول إلى رذاذ متعدّد الشكل، وغالبا منتظم في أخاميس، وتكوين الكون من جرّاء عمل الاستكبار او النسيان، وغالبا

خلق العالم من الصانع المتداخل، واغتراب الأرواح البشرية في العالم، غالبا كنتيجة للهبوط، والانتقال الإجباري (التناسخ) للأرواح غير المخلصة، في ظروف وهياكل بدنية عديدة، القالب أو القميص، وخلاصها النهائي، ونجاتها كنتيجة للمعرفة (للعرفان)، للغنوص (للعلم وأحيانا للمعرفة)، وعودتها إلى الأصل.

في الواقع ثمّة تقليدان إسلاميان عظيمان لفرقتين فقط تتمحور تعاليمها في أسطورة غنوصية من هذا النوع:

١) التقليد المتكون مع مطلع القرن الثامن الميلادي لشيعة العراق "المتطرفين" أو الغلاة الذين أصبح النصيريون أو العلويون الحاليون السوريون ورثتهم المتأخرين؛ هذا الكتاب يتناولهم.

٢) فرقة القرامطة أو الإسماعيليين الذي ظهرت دعوتهم في منتصف القرن ٩م - في العراق أيضا - وانتشروا بسرعة في جميع العالم الإسلامي. لقد عرفهم الصليبيون مع بداية القرن ١٢م باسم الحشاشين Assassinen. مازالت الإسماعيلية تعيش حتى يومنا هذا في سورية ولبنان واليمن، وقبل كل شيء شمال غرب الهند في فرقة (الهوجة) تحت إمامة آغا خان، وفي (البهرة). وقد انشقت عن الإسماعيلية مع بداية القرن الحادي عشر فرقة الدروز الذين يعيشون اليوم في سورية ولبنان وفلسطين. (سيفرد كتاب لاحق لهذه الفرقة الثانية).

يجب الفصل ما بين الفرقتين من حيث أصولهما؛ حيث أن الإسماعيلية - هي تشابه تقريبا المانوية او الفالانتانية - ديانة مؤسّسة وذات خصوصية كبيرة. لم يندر، بطبيعة الحال ومع مرور الزمن، أن يكون قد حصل احتكاك وتأثير متبادلان، وأيضًا اندماجات تلفيقية للتراثين بعضهما في الاخر. تم إبعاد الفرق الإسلامية - الغنوصية كليا من قبل المتزمتين السنة والشيعة - الإماميين عن موطنها الأصلي المشترك، عن العراق. ولذلك يعيش أفراد هذه الفرق اليوم غالبا ضمن مجموعات مغلقة كثيرا أو قليلا في مناطق انسحاب جبلية - مثل: النصيريون/ العلويون في جبل

الـنصيرية في سوريـة، والدروز في لبنان أو في حـوران السوري، والإسماعيـليون في لبنان وفي الهضاب اليمنيـة أو في منطقة بامير هندوكش - أو أنهم هاجروا إلى أطراف العالم الإسلامي، مـثل هوجة وبهـرة في الهند. قليلا مـا يتنبه الأوربـيون إليهم، أحـيانا عـندما يصبح ممثلـوهم من الـرجالات البـارزين اجتماعيـا مثل الآغا خـان، او يغدون في مـركز الأحداث الـسيـاسيـة مثل زعيـم الدروز كـمال جنبلاط الـذي أغتيل سـنة ١٩٧٧ أو الـرئيس السـوري النصيري (العـلوي) حافـظ الأسد. في بيئـتهم الخارجيـة الإسلامية يقرّ بهـم اليوم، عـلى الأغلب، ويُعـتبرون كـأفـراد من المجـتمـع الإسلامي معـترف بهم. (إعتمدنا لهذا الفصل على هايـنس هالم: " الغنوصية في الإسلام " ، ترجمة رائد الباش، مراجعة: د. سالمة صالح، منشورات الجمل. كولونيا ألمانيا ٢٠٠٣، ص ٥-١٢).

القسم الرابع

كلمات وصور ورموز

طرق التفكير عند الغنوصيين

الكلمات والصور والرموز نقل إلينا التعليم الغنوصيّ عقيدة معقّدة حول التساؤلات الوجودية التي يطرحها كل إنسان. وقاموا بخلط ومداخلة بين الأساطير المتعددة والنظريات المنتشرة، فنجد لديهم تأثيرات ثقافية مختلفة شديدة التباين، كان يجب أن نختار بعضًا منها.

في هذه العجالة نقدّم للقارئ بعض نقاط من الفكر الغنوصيّ توضّح ما يخصّ مسار الإنسان بنقطتين:

- مكوث الإنسان في هذا العالم، وعودته إلى الله.

إن الاهتمام الأنثروبولوجي الإنساني موجود في كل نظام فكري، ويرتبط هذا بنظرته إلى العالم وإلى اللاهوت. والمفاهيم، التي كانت لدى الغنوصيّين عن العالم وعن الله، نجدها بوضوح في الفقرات الآتية:

يعتقد الغنوصيون أن "الجسد سجن"

إن الأرواح مسجونة، بحسب مصير إرتبط بها قرّره أب أوّل، وهو الذي سجنها في معتقل الأجساد، وهذه الأجساد صُوّرت وسوف تبقى حتى نهاية هذا العالم المنبثق والساقط. (ن.ح ٢/ ٥ " الكتاب الذي لا عنوان له" ١١٤/ ٢٠-٢٤).

" عليك أن تمزِّق، من فوق إلى تحت، هذا الثوب الذي يلبسك، هذه القماشة، قماشة الجهل، فإن لُحمتَها هي الخبث وهي عبارة عن سلسلة من الفساد؛ إنها سجن من الظلمة وهي الموت الحي، والجثة التي تتحسس والقبر الذي ستأخذه معك ((....، هذا هو العدو الذي لبسته كالثوب، والذي يخنقك ويجرّك نحو الأسفل، نحو ذاته، إنّه يخاف أنك إذا رفعتَ عينيك نحو العُلى وتأملت جمالَ الحقيقة، فسوف تكره خبث

العـدو، وعندئـذ ستفهم كل الفِخـاخ التي نـصبها ضـدّك" ، (المجموعـة السرّية ٧/ ٢ - ٣).

هكذا يصف الـغنوصيّون الجسد كقبوٍ أو سرداب ضيّق حيث تصطدم الروح وتختنق، والجسد، الـذي على صورة العـالم، هو أيضًا سجن جهنميّ حيث تتيه البشريـة كمن يضيع في متاهة.

نحن إذن في قلب أحد الهموم الأساسية للتعليم الغنوصيّ، نحن أمام مشكلة الشر.

أ- الفاطر والاركونات (الأراكنة أو السلاطين).

إذا قلنـا إن العالم شرّير، فهذا يعني أن خالقه شرّير أيضًا، أي أنه ليس إلهًا حقيقيًا ولا طيبًا، ولم يخلق هذا الكون طيبًـا. ولتأكيد هذا قال الغنوصيّون بنسب " الخلق" ، أي خلق العالم وخلق الإنسان، إلى إله ثانوي، الفاطر Demiurge، وقدرته ليست مساوية لقدرة الإله الحقيقـي (لكنّ الغنـوصيّـة ليسـت راديكاليـة في هـذا التـأكيد، كما ستـؤكد المانوية لاحقًا في القرن الثالث الميلادي)، ويكتفي هذا الإله الثانوي الكاذب بالسيطرة على هذا العالم وفرش جناحه الأسود على الدنيا وعلى التاريخ.

تقول أسطورة غنوصيّة إن الفاطر Demiurge، هو إبن للحكمة "صوفيا" وهو آخر الإنبثاقـات (الأيونـات) السماويّـة. أراد أن يُنجب بـلا شريك (هذه الـفكرة مـوجودة في ديانـات أخرى عديدة). لكن الحكمة (صوفيـا) تسقط خارج الملء (البليروما) فتنجب المادّة ويلـد منها مسخٌ قبيحٌ متكبّرٌ مخلوط بالـشر، ويفلت هذا حـالا من يدهـا. لكن هذا المخلـوق المسخ، بـرغم قبحه، لـديه قبس من نـور العقل أعطته إيـاه أمّه صـوفيـا (الحكمة).

ويقول الغنـوصيّون إن هذا الخالق الفاطر Demiurge هو نفسه إله العهد القديم، ويحـوكون على منوالهم قصة الخَلق التـي في سفر التكوين، فيحـوّرونها بهـذا الاتجاه. فـيعطـون بـحسـب نظـامهم، للفـاطـر أسماء عـِدّة، فهـو إله اليهـود، ويـسمّـونه أيضًـا

" يلداباعوت " ، وهذا الإسم يوجد، في "كتاب أسرار يوحنا " (ن.ح ٢/١) إذ يقول ألقي "يلداباعوت" في المادة، وحاول أن يقوم بالخلق، وفي البداية صنع الأركونات، وهي قدرات شرّيرة ساعدته في عمله التالي، أي في خلق آدم الإنسان الأول.

ب- خلق آدم

رأى "يلداباعوت" صورة الإله الأعظم تنعكس في المياه، فقرّر سبعة من الأركونات (الإنبثاقات الإلهيّة) أن يصنعوا مثل تلك الصورة على شكل إنسان أول. فقامت تلك الأركونات بجبْل الروح أولا ثم نفخ، كل واحد من السبعة، في الروح جوهرًا أو كينونة. هكذا يتسّلم آدم روحًا من عظم، وروحًا من جِلد، وروحًا من أعصاب، وروحًا من لحم، وروحًا من مخّ العظم، وروحًا من دم، وروحًا من شَعْر. لكن هذا مجموع هذه الأرواح لم تتمكن من الوقوف على القدمين، فكان آدم يزحف كالبائس، شاهدًا على فشل من خلقه، فتحنّنت "صوفيا" (الحكمة)، عليه فلجأت إلى الحيلة، وطلبت من إبنها (يلداباعوت) أن ينفخ في آدم شيئًا من روح النور التي كانت لديه. وهكذا يفقد الفاطر، بتلك النفخة، سلطانه على آدم، لأن آدم يحصل عليها من غيره فدخل الحياة. ولما انتبه الفاطر على تفوّق آدم الجديد عليه وعلى أقرانه، لم يعد للفاطر سوى هدف واحد وهو أن ينتقم، ويقتل الروح التي جاءت في آدم. فخطط، منذ أول عمل له، أن يكون أول عمله يخلقه هو الجسد، وهذا الجسد سوف يَخنق، بسبب ثقله، الإنسانَ الأوّل.

ويقوم ٣٦٥ ملاكًا بالمشاركة في خلق جسد آدم، كل واحد يقوم بخلق عضو من الأعضاء، ويصف "كتاب الأسرار ليوحنا " ، أعضاء آدم واحدًا بعد واحد، وكيفية تداخلها في ماكنة الجسد – هذه الماكنة البائسة!

هناك مجموعة من ثلاثة أراكنة تعطي آدم الإنفعالات الأربعة: اللذة والرغبة والألم والخوف. ومنها سينبع كل ما هو شرّير، كما أن أربعة عناصر ستُكوّن جوهر آدم: الأرض، الماء، النار والهواء، وبواسطتها يوضع الإنسان الأول تحت سلطان المادة وفي

ظل الموت وفي جهل الظلمة والرغبة. وفي القبر، الذي يجتمع فيه الجسد، تشارك اللصوص (أي الاركونات) في حبس الإنسان في سلسلة من حالات النسيان التي تجعل من آدم قابلا للموت. (ن.ح ٢/ ١، ٢١/ ٤ – ١٣). وتقوم الأركونات بوضع آدم في الفردوس، وبذلك تحقق المرحلة الأولى من مؤامرة الأركونات عليه: إعطاء الحياة لآدم يعني إعطاؤه الموت.

ج- الخديعة

منذ هذه اللحظة تتكون خديعة هائلة، لا يفلت منها أي جزء من الحياة على الأرض. غايتها أن تغري الإنسان بسلاحها وهو الجنس. فالجنس لدى الغنوصيّين يُعَدّ نجاسة، وسوف يتحكّم الجنس، لا في الإنسان فحسب، بل في نظام الكون كله. فالطبيعة عبارة عن رحم يُخصبه مَني الشياطين، ويشكّل مسرحًا تدور فيه مأساة الإنسانية – (هذا التعبير من كتاب " أحاديث سام " ، ن.ح ٧/ ١). فظهور الجنس يقوّي السلاسل الثقيلة التي تكبّل آدم. كما أن حوّاء، رفيقة آدم، ستقع في إغراء الأركون الأول، أي الحيّة، " التي علّمت آدم وحواء أن يأكلا من ثمرة الإنجاب، من ثمرة الشهوة المنحطة " (في كتاب " الأسرار ليوحنا " ن.ح ٢، ١ ٢٢، ١٢ – ١٥). هكذا يبدأ نظام التكاثر البشري الذي يستعمل آدم، فتخضع البشرية كلها لهذا المسلسل التاريخي. ونقرأ في النص السابق عينه: " حتى الآن كان الجنس يستمر انطلاقا من الأركون الأول، لأنه زرع الإنجاب ورغبة الإنجاب في تلك التي كانت مُلك آدم (حواء)، بواسطة الجنس الذي خلقه، والنسل الذي يتشكل في الجسد، ثم سلّحه بالروح المشوّهة " (ن.ح ٢، ١ ٢٤، ٢٦ – ٣٣).

إن مفهوم الروح المشوّهة باليونانية (أنتي ميمون بنيوما) هو مفهوم أساسي في الفكر الغنوصيّ: فهو القوة الشريرة التي تعتمد على ما هو ظاهر من سلطة واهمة تقوم بقلب الحقيقة إلى كذب، والكذب إلى حقيقة. وهكذا يفقد الإنسان كل إمكانية استدلال،

فيعدّ جهله معرفةً، ولا يعود يحاول أن يفقه وهم الكذب الموجود في العالم المحيط به.

إن النار، التي في الظلمة، هي نور كاذب وهي التي تجعل الأرواح تُخطئ. و "كتاب توما، البطل" يشرح هذا قائلا: "هذه النار خادعة، لأنها تعطي الناس وهمَ الحقيقة وتجعلهم سجناء في راحة الظلمة" (ن.ح ٢/٧، ١٤٠/٢١-٢٤).

هذا الوهم ينتهي إلى الجنون: "أنتم تضحكون وأنتم تفرحون في ضحك الجنون ((...، لا تفهمون أنكم في الظلمة والموت. إذن، هذه النار التي تسكرون بها تجعل قلبكم يضلّ ((...، وهي تجعل السمّ الزعاف وضربات عدوكم كالحلاوة. وتبدو الظلمات التي ظهرت لكم كما لو كانت نورًا". (المصدر السابق ٢-٧، ١٤٣، ٢٣-٣١).

يأخذ كتاب "تعليم سلفانوس" الإتجاه عينه، مؤكدًا الانخداع في سراب الوهم: "الإنسان يلحق بالظلمة، يتصورها نوراً، يشرب ماءً آسنًا، ويعتقده ماءً طاهرًا. لم يتعرّف خديعة العدو الذي ظهر له بمثابة صديق". (ن.ح ٧/ ٤، ٨٨/ ٣٠-٣٥، ٩٥/١٢-١٥).

ويصف "إنجيل فيليبس" الميكانيكية التي بواسطتها حلّ الكذب فيها مكان الصدق:

"إن الأسماء التي تطلق على الأشياء الأرضية هي أسماء خادعة، لأنها تُنحّي أفكارنا عمّا هو حقيقي، فتتجه نحو ما هو كاذب". (ن.ح ٢/٣، ٥٣/ ٢٤-٢٦).

ويبدو أن الأركونات هي التي تلاعبت بالأسماء لكي تبني ملكوتها: "أرادوا أن يخدعوا الإنسان لأنهم رأوا أنه كان قريبًا من الطيّبين بالحقيقة، فأخذوا إسم الصالحين وأعطوه من ليسوا هكذا، وبالأسماء خدعوا الإنسان ((...، كانوا يريدون، في الواقع، أن يلغوا حرية الإنسان ويجعلوا منه عبدًا إلى الأبد. (ن.ح ٢/٣، ٥٤/ ١٩-٣١).

د- خلق الزمان والمصير

لم تكتفِ الأركونات بسجن آدم في هذا الجسد. ولكن لكي يكون عملهم كاملا، خلقوا المصير، أي القدر، واخترعوا الزمن. وهذا الزمن يمرّ عبر إيقاع الأيام والأشهر والسنين، فيجعل العبودية الإنسانية ثقيلة. وكل تقسيم للزمن يستولي عليه أحد الاركونات. أما المصير (القدر) فيسمّيه الغنوصيّون (هايمَرميني) heimarméné، ويعتبرونه كقضاءٍ محتوم، وكابوس يضغط على ميكانكيّة الزمن والفضاء. وكل هذا ناتج عن زنى إرتكبه الأركونات مع رفيقاتهم، فالمصير هو هذا الإطار الذي يدور فيه تاريخ الإنسانية:

" إنه (الزمن) مصدر كل قلق، إختلط به، حتى يومنا، كل شيء من الآلهة والملائكة والشياطين وكل الأنسال والأنساب. فمن القدر تنبع كل قباحة وكل عنف، كل تجديف وكل سلسلة نسيان وجهل، بل وحتى كل وصيّة وخطايا كبرى وخوف كبير. هكذا أصبحت الخليقة عمياء حتى ما عاد الناس يستطيعون معرفة الله الذي في السماء" (كتاب أسرار يوحنا، ن.ح ٢/١، ٢٨/٢١-٢٩).

إن إبعاد الإنسان عن الله هو إذن غاية مؤامرة الأركونات، وهي سجنته في النسيان، لذلك عليه أن يقطع طريقًا طويلا كي يتخلّص من الوهم ويعود إلى الحقيقة.

هـ- مفهوم التاريخ ومفهوم الزمن

من هذه اللوحة الأسطورية نستنتج أساس الفكر الغنوصيّ: الزمن - والتاريخ الذي ينبع من الزمن - يبدو في نظر الغنوصيّ بلا قيمة تُذكر، لأنه لا يدخل ضمن مخطط الله. لأن الله لم يخلق هذا العالم، وأي تدخل منه في التاريخ لا غاية له سوى أن يُخرج الإنسان من هذه الورطة التي وجد الإنسان نفسَه فيها رغمًا عنه، ويقول هنري شارل بويش: " أن يقوم الله بكسر التاريخ وتحطيمه إلى قطع، كي ينكشف الكذب الكبير الذي فيه" (فصل عن الغنوصيّة والزمن من كتابه " البحث عن الغنوصيّة"

١ – باريس ١٩٧٨ ص ٢٤٤). وهنا يمكن أن نقيس المسافة التي تفصل بين الفكر الغنوصيّ والفكر المسيحي، ففي المسيحية التاريخ يريده الله الذي أراد العالم وخلقه بنفسه، وفيه قيمة خلاصية، وهو يُعد مجيء المسيح وخلاص الإنسان.

و- الروح سجينة

الإنسان (آدم) إذن سجين المادة، وهذا السجن هو مصير كل روح. والمؤلفون الغنوصيّون وصفوا معاناة ومأساة هذا العالم، ولجأوا إلى الأسطورة الأدبيّة، وهذا الأسلوب الأدبي يثير إنتباه القارئ، ويثير في مخيلته صورًا يتقبلها. وضمّنوها رسالة عدّها الغنوصيّون قانون الحياة: إحتقار العالم والبحث عن الروح السجينة في المادة. وأحد كتب نجع حمادي مخصص كلّه لمغامرات الروح وهو "كتاب الشرح عن الروح" (ن.ح ٢/٦).

يعزف مؤلف هذا الكتاب على وتر الحياة الجنسية لكي يصف معاناة الروح، ويقدّمها على شكل امرأة. ويحكي لنا سقوط الروح من المملكة الإلهية حيث كانت عذراء لا جنس فيها، كانت وحدها تجمع الذكر والأنثى androgyne، وكانت تقف بالقرب من الآب. وفجأة وجدت نفسَها متجسّدة في جسد فتصاب بكل الويلات: "عندما سقطت في الجسد وجاءت إلى هذه الحياة، وحطّت في وسط جماعة من اللصوص والرجال المتكبرين الذين دفعوها من واحد إلى الآخر ودنسوها" (ن.ح ٢/٦، ١٢٧، ٢٥ – ٢٩). إن سقوط الروح في الحياة يعني ليا عبودية جنسيّة تقيّدها في سجن الجسد، فيغتصبها اللصوص (أي الأركونات) وتستسلم للزنى والدعارة وتصاب بالخيبة من محبيها وعشاقها، فتنتقل من واحد إلى آخر، فيجبرونها على الإستسلام إما بالقوة أو بالهدايا الخادعة الكاذبة، قسم منهم يجبرها على الزواج منهم فيجعلون منها خادمة وعبدة، ومن هذا الاتحاد والنجاسة يولد لها أطفال أغبياء يحملون معهم علامة الدعارة التي قامت بها أمّهم.

الناتج هو إنحطاط الروح، إذ تنسى اصولها السماوية. ونتيجة هذا الجهل السماوي، تعميها المادة، وكما حدث لآدم، لن تعود الروح تعرف حدود سجنها الضيّق.

مع ذلك هناك أمل للروح بالخلاص الذي يشرق في ظلمة السجن، ويقول كتاب تفسير الروح المذكور آنفًا إن الخلاص يبدأ بالوعي: فالروح تفهم خيبتها وتتوب، وفي يأسها تلجأ إلى الصلاة، ويتنامى عندها الوعي ويستجيب الآب من فوق لدعائها، والروح تتذكر بيتها السماوي وعريسها الوحيد السابق وأباها. وحينئذ يبدأ طريق العودة الطويل " .

إن حالة مثل هذه تحكيها لنا أنشودة الجوهرة، وهي قصيدة حفظتها " أعمال توما " باليونانية وبالسريانية. فيها تلبس الروح شكل أمير شاب يغادر قصره الكائن في الشرق، ويحمّله أبوه رسالة خطيرة وهي أن يذهب إلى البلاد الغربية، ويستعيد لؤلؤة ثمينة وقعت في براثن تنّين مخيف. وتحت شكل هذه الصورة المجازيّة تمثّل الجوهرة شرارة النور المدفونة في الظلمات، والواقعة في حراسة " الأركونات " ، وسرعان ما تتحوّل سفرة هذا الأمير الشاب إلى كابوس. فالاركونات (ويطلق عليها، في هذه القصة إسم " المصريين " ، لأن مصر هي الرمز السلبي لكل النظريات الغنوصيّة)، يخدعون هذا الشاب ويقدّمون له طعاما وشرابًا، يجعلانه يستغرق في نوم ثقيل.

وفي "كتاب تفسير الروح" يُرمز إلى عبودية الروح بالروابط الجنسية، ويعبّر عنها هنا بنبرة أخرى تتأرجح بين النوم وبين السكر ثمّ التسمّم، والنتيجة واحدة وهي النسيان. فيقول الأمير: نسيت أنني كنت إبنًا للملوك فخدمت ملكهم. نسيتُ الجوهرة التي من أجلها أرسلني أهلي، وبسبب أطعمتهم الثقيلة سقطت في نوم عميق. (الجملة ٣٤ - ٣٥ من النص السرياني).

ويقع حدثٌ ينقذ الأمير من محنته. وفي هذا النص، ليس الحدث المذكور وعيًا من الروح التي تبتهل إلى الله، ولكنه نداء يأتيه من أعلى والذي له القدرة على إيقاظ ضمير الأمير. في هذا التعبير الرمزي في أنشودة الجوهرة، تتخذ الدعوة، شكلَ رسالة تُرسَل إلى

الأمير من قبل والديه الملكَين: " إستيقظ وقم من نومك ((...، تذكّر أنك إبن الملوك، كن مدركًا عبوديتك تجاه السيّد الذي استعبدك، تذكّر الجوهرة التي أرسلناك لتبحث عنها في مصر " (الجملة ٤٣-٤٥).

وتطير الرسالة متحوّلة إلى نسر، وعندما تصل إلى الأمير تصير كلامًا، فيقول: " لدى سماعِ صوتها إستيقظتُ وقمتُ من نومي " (الجملة ٥٣).

ز- المخلّص

ويُرسَل مخلّص ليعيد الروح إلى الله. هذا المخلص هو الروح الذي هو توأَم روحنا، لم يتّسخ بالأرض، واجبه أن يساعد روحنا على الوصول إلى المعرفة.

في "كتاب تفسير الروح"، يصل مسار المعرفة إلى الوحدة المنشودة، ويعبّر عن ذلك بتشابه العرس أو الزواج بين الروح والنفس اللتين تتحدان كعريس وعروس، فتترك النفس حياة البغاء وتدخل الروح الخدرَ، غرفة العرس وهي صورة للملء (البليروما).

في أنشودة الجوهرة تصبح الصورة أكثر تعقيدًا، لأننا أمام انشطار الشخوص. فالأمير هو، في الوقت عينه، النفس التي تغرق في العالم، والروح التي تُرسَل من علوّ لتحرير الجوهرة. وكلاهما يسقط تحت تأثير الأراكنة. فيُمسي الأمير نفسه محتاجًا، هو أيضًا، إلى مخلص. ويخلّصه توأمُه النوراني الذي بقيّ محفوظًا، في مأمن، لدى الآب. فيذهب هذا التوأم، للقاء الأمير، تحت شكل رداء من نور، فيحاول أن يخلّص الأمير. إن هذا الثوب النوراني هو "الأنا" الحقيقي، ويصبح كلاهما واحدًا. يتعرّف الأمير على ذاته، فيتحرر ويستطيع حينئذ أن يخلّص الروح، أي الجوهرة.

هنا تتشكل أمامنا صورة أسطورية للمفهومِ الغنوصيّ المسمّى " المنقِذ الذي يُنقَذْ ". ونجد هذا المفهوم بصورة خاصّة في كل النصوص الغنوصيّة المتشرّبة بالمسيحية، فيطبّقونه على شخصية المسيح:

ينزل المخلّص على الأرض، لخلاص الناس، وهو بدوره يتقمّص، لزمن معيّن، كيانًا

نظير كيانهم: لا لكي يعطي معنىً لهذا العالم أو للألم، كما هو الأمر في اللاهوت المسيحاني الذي تعلنه الكنيسة الكبرى، ولكن لينقذ الأجزاء النورانية التي سقطت في هذا العالم. فالمخلّص الغنوصيّ يبقى غريبًا عن العالم، وهو يلبس الجسد، لدى نزوله، بمثابة قناع مؤقّت، لكي يمرّ من دون أن تراه أعين القوى الكونيّة، لكي يخلّص الأرواح من براثنها. المخلص، إذن، يحتال على الاركونات، ويتهرّب منها بالحيلة. وما آلامه وصلبه إلا شبهٍ لغرض خَدع تلك القوى: فلم يتألم إلا بالظاهر، ويسوع يضحك من إنخداع الأركونات بذلك، التي لما رأت قِشرته (جسمه) مصلوبة، تصوّروا أنهم قد قتلوه وقضوا عليه.

إن عودة الروح تمر عبر طريق خطير ومتعرّج، وهي تتخذ أسلوب الحيلة، وذلك لأنها الوسيلة الوحيدة لتجنب الأخطار والفخاخ التي وُضعت في كافة طبقات العالم.

العودة صعودًا في طبقات العالم

أ- عودة الروح نحو الأعلى

عندما تحصل الروح على المعرفة، تستعد للصعود نحو وطنها السماوي. لكنّ هذه السفرة خطرة، فالسماوات تعجّ بالأركونات التي غايتها أن تعيد الروح إلى سجنها[14]. إنهم كحرّاس جمارك، يحرسون كل طبقة، ويطلبون من الروح حسابًا، وهناك ملائكة منتقمون، قعقعة سلاحهم المهدّدَة تثير الخوف والرعدة.

خصص الغنوصيّون صفحات عديدة جدًا من أدبهم، يصفون فيها سفرة العودة إلى السماء - الفردوس، لكنهم لم يخترعوها من لا شيء، فقد كان مؤلّفو الكتب الرؤيويّة اليهود قد جعلوا هذا موضوعهم المفضّل.

لكن عند الغنوصيّين تصبح النبرة أكثر مأساويّة: فالمسألة ليست فقط إختراق كونٍ خطير، لأنه عالم الألوهية والسرّ، ولكن المسألة هي أن تشق الروح طريقًا نحو السماوات المراقَبة من قبل قوى الشر.

ولاجتياز العقبات، التي تتخلل طريق العودة، تحتاج الروح إلى قدْر من المعلومات والتقنيات الدقيقة، وهي الرصيد العملي للمعرفة الغنوصيّة Gnosis، فالروح – من دون هذه المعرفة – تصبح ضحيّة سهلة لقوى الأركونات الغاشمة. لذا على الروح أن تلجأ إلى الحيلة والذكاء، ويعتمد هذا على:

أولا: على قدرة الكلام السحرية، ككلمات مثل: السر، أو العبور، أو على تعاويذ وجمل تتلفظ بها الروح بأسلوب مقصود.

ثانيًا: على قوّة العلامات: كالختم، والوشم والرموز التي تحملها الروح معها.

هكذا على الروح أن تغتني بمجموعة المعارف هذه من مخلّصها الذي يكشف لها كل شيء قبل أن تبدأ السفرة.

وفي نصوص غنوصيّة عديدة، يقوم المخلّص يسوع، بتعليم تلاميذه رموز الروح، وكيفية التصرف لدى عبور طبقات العالم. غاية هذا التعليم هي تلقين الروح الردّ على الأسئلة التي سيطرحها الأراكنة في طريق العودة، وهذا سوف يسمح لها أن تبدأ السفرة الأخيرة المهمة"[١٥].

في ما يأتي بعض النصوص من كتاب "رؤيا يعقوب" المنحول:

" عندما يلقى القبض عليكِ وتتألمين في عذابات متعددة، وعدد كبير سيتسلح ضدّكِ لإلقاء القبض عليك، ثمّة ثلاثة أشخاص سيمسكون بكِ، إنهم جباة الضرائب، الذين يملكون هناك، لا يطالبونك بالضريبة فقط ولكنهم يخطفون الأرواح ويرفعونها ويسرقونها. فإذا وقعتِ بين أيديهم، فسوف يسألك الحارس: من أنت؟ من أين تأتين؟ حينئذ عليكِ أن تجيبيه: " جئتُ من عند الآب الموجود المطلق! أنا إبن من هو موجود قبل كل شيء" (ن.ح ٥/٣، ٣٣/٢-٢٤). "وعندما يسألكِ: إلى أين تذهبين؟ تجيبينه: " أذهب إلى المكان الذي جئتُ منه، فإلى هناك أعود". فإذا تكلمت هكذا، فسوف تفلتين من أيديهم" (ن.ح ٥/٣، ٣٤/١٦-٢٠).

تعتمد أجوبة الروح الجيّدة على إعلان طبيعتها الإلهية المبنية على تذكّرها أصولها الأولى. أما الكلمات التي تتلفّظ بها، فتكوّن القشرة التي ستحميها وستجعلها في حرز من لمس الأراكنة فيرتدّون عنها خائبين. في نص غنوصيّ، ينقله لنا القديس إبيفانس، تتوصل الروح إلى الإفلات من الأراكنة، إذا أنكرت إنتماءها إلى عالمهم، فتقول لهم: " المخلص كشف لي ما على الروح أن تقول عندما تصعد إلى السماء، وما عليها أن تجيب كلّ واحد من القوات العلويّة: أنا عرفتُ نفسي، أنا لممتُ أعضائي المتفرقة، لم أزرع ولم أُنجب من أجل الأراكنة، ولكنّي اقتلعتُ جذورها ((...، أنا أعرف من أنت، أعرف، لأنني ممّن جاء من فوق" (البناريون ٢٦).

بجانب قدرة الكلام، هناك أيضًا قدرة العلامة، في "رؤيا بولس" (ن.ح ٥/ ٢)، الروح تكشف ختمًا SEMEION كنوع من جواز سفر أو ورقة عبور أو عدم تعرّض. وعندما يرآها الحارس الأركوني ينذحر ويتراجع إلى الوراء[١٦].

هناك كتاب حول ما ينبغي القيام به لدى صعود الكون في سفرة السماء، حُفظ في الأدب الغنوصيّ، هو "الكتاب الإشراقيّ الكبير "le grand traité initiatique، من مجموعة بروس Bruce. فيه نصائح عديدة وتقنيات يعطيها يسوع للعبور من سماء إلى سماء. ويحوي الكتاب رسومًا دائريّة تعطي فكرة عن تصوّر السماوات من قبل الغنوصيّين.

إن عودة الروح ليست سوى عكس ما قام به المخلص لدى نزوله لإطلاق سراح الروح، وكلاهما يستعمل الأساليب غينها. في "مزمور النحاشيين" (أو مزمور عُبّاد الحية) الذي نقله القديس هيبوليطس: يصف المخلص سفرته نحو الطبقة السفلى:

" الروح تهيم ضائعة في متاهة تعيسة لا مخرج لها من الشر...، إنها تحاول الهرب من الفوضى المرة، ولا تدري أين تتوجّه. من أجلها، أرسلني أيها الآب، فإنني أمتلك الأختام، سوف أنزل، سوف اخترق كل الأيونات، وسوف أكشف كل الأسرار، وسوف أشير بالإصبع إلى الأشكال الإلهية، سوف أرفع سِتر السرّ عن الطريق المقدّس

وسأسمّيه المعرفة" (الدحض ٥/ ١٠، ٢).

ولكي تتمكّن الروح أن تصعد، كان من الضروري على المخلص أن يرسم الطريق، ويكسر شوكة الأراكنة، ويخلق بذلك سابقة. وهنا ستنفتح الطريق نحو انعتاق الروح التي ستفلت من أيدي القوّات بتأكيد طبيعتها الإلهية.

ب- عودة الغنوصي خاصة

إن سفرة الروح، العائدة إلى السماء، تخرج من إطارها الأسطوري لكي تجد تطبيقًا في الواقع. ويؤكد خصوم الغنوصيّة، من الآباء المدافعين، أن ضمن بعض أتباع البدع من كانوا يمارسون طقوسًا على المدنفين كي يساعدوهم على العودة إلى الله. وهكذا تمسي الأواخريّة (الإسكاتولوجية) الغنوصيّة واقعيّة وفرديّة.

إن غاية هذه الطقوس هي الخلاص، أي المرحلة التي تعقب الحصول على كنوز "المعرفة"، فتتحقق الولادة الجديدة التي بدونها لا يمكن للروح أن تدخل في الملء (البليروما).

أما في وصف هذه الرتبة، فسنتتبّع ما كتبه القديس إيريناوس الذي يصف "المرقسيين" (أي أتباع مرقس الساحر)، منتقدًا وذاكرًا أن الغنوصيّين، في هذه الاحتفالات، يختلفون من جماعة إلى أخرى، "وأن هناك أشكالا من الخلاص بعدد من يمارس تلك الرتبة". (من كتابه "ضد الهراطقة" ١، ٢١/ ١ - ٢). وتدور الرتبة على مرحلتين:

يسكبون، أولا، خليطًا من الزيت والماء على رأس المدنف، ثم يتلفّظون بتعاويذ، فينجم عن ذلك أن المدنف يُصبح خفيًا عن أعين الأركونات. ثم، بعد موته، ينبغي على الغنوصيّ أن يتلفّظ بجُمل حفّظوه إياها، وهي: "أنا الابن الخارج من الآب الموجود، أنا إبن في الموجود، جئت لأرى كل شيء وأعود إلى بيتي الخاص الذي منه خرجتُ". (المصدر عينه ١، ٢١/ ٥).

نلاحظ أن هذه الصيغة المذكورة تشبه ما ذكرناه قبل قليل، ونجدها أيضًا في كتاب " الرؤيا الأولى ليعقوب " ، حيث كلمات مشابهة تلفظها الروح أمام الاركوني، بهذه الكلمات يتمكّن الغنوصيّ المتتلمذ من غلبة القوّات المعترضة طريق العودة الصاعد إلى العوالم التي نزل منها.

لكن السفرة لم تنتهِ بهذا، فبعد أن يترك المدنف جسده في هذا العالم، ويصعد إل ما وراء المناطق اللامنظورة، سيصل الغنوصيّ إلى الملائكة الذين يحيطون بالفاطر الشرير (الديميرج)، فيقول لهم: " أعرف ذاتي وأعرف من أين أتيتُ " ، ويصلّي إلى حكمة الآب التي لا تفسد، فتضطرب الملائكة وتعود القهقرى لتتهجم على جنس أمّها التي خلقتها، أما الغنوصيّ المتعلّم فيعود من حيث جاء ويقطّع كل الرُبُط أي الروح. (الدحض ١/٢١-٥). إذن، تحت شكل نفس نظيفة، يدخل الغنوصيّ الملء (البليروما)، ومن الأجزاء الثلاثة لطبيعته الإنسانية، أي الجسد والروح والنفس، النفس وحدها هي العنصر الذي يستحق الخلاص.

وستكون حصة الأرواح، التي لم تتوصل إلى المعرفة، أنها ستعود إلى التناسخ والتجسّد في أجساد أخرى حتّى نهاية العالم. ولكن التطبيق الواقعي دفع الغنوصيّين إلى تصوّر دينونة عظمى حين تتدمر الطبقة الكونيّة كلها.

ج- " أنتَ أنا وأنا أنتَ " ، أو صوفية العرس

يعمل الفكر الغنوصيّ بحسب قطبية التضادّ، وهذا الفكر يعطي نصوصَه توترًا شديدًا. فالتضاد الأساسي يعتمد على الأسفل والأعلى. وحول هذين القطبين ينتظم ويترتب، على شكل شبكة من التعابير المتضادّة، غايتها تحميل القطب الأسفل كل الصفات السلبية، والإضفاء على القطب الأعلى كل الصفات الإيجابية. فالتضادد الأساس الذي يتصف به القطب التحتي، أي الجهل، هو بعكس القطب المضاد الذي هو المعرفة.

هكذا كل الصور والتشابيه، المستعملة من قبل المؤلفين الغنوصيّين، تتخذ نظامًا وترتيبًا قطبيًا حادًا، وتتبّع منطقًا دقيقًا لا تحيد عنه ولا تكشف فيه اضطرابًا ظاهرًا من ناحية اللغة الرمزية.

فإن كان العالم التحتي هو مسرح هذا الصراع المستميت الذي تخوضه الروح ضد الأراكنة، فالعالم العلوي يمثّل الراحة. وعوض القلق تملك السكينة. وبعكس الرعب، الفرح. والإضطراب الذي في الخليقة الفاشلة، يستبدل بالنظام الكامل الذي لدى الأيونات، وعكس النجاسة التي في الجنس هناك الطهارة، وعكس القبح يأتي الجمال، وعكس الضجيج المضطرب يأتي الصمت السماوي، وعكس الرغبة التي لا تشبع والعابرة يأتي الخلود والامتلاء، وعكس الموت تأتي الحياة.

هذه التشابيه، وأخرى كثيرة، تتخلل كل الأدب الغنوصيّ فتعطي، في الوقت عينه صفحات قلقة وصفحات أخرى مليئة بهدوء كبير.

ولكي يظهر، بشكل شامل، الجانب الإيجابي للعالم السماوي، وجب على الغنوصيّ أن يستعمل رموزًا قويّة، فوجد في رمز الزواج والتشابيه التي ترافقه وتحيط به، أحسن معين. وهكذا الأمر في كل النصوص التي تطوّرت فيها صوفيّة الزواج، وجعلت الغنوصيّة تأخذ مكانها في صرح البناء الصوفيّ وفي تاريخ الفكر البشري.

د- العرس السماوي

لكي يصف إتحاد الروح بالنفس، أي اتحاد الغنوصيّ بتوأمه، لم يجد رمزًا أجمل من الزواج. فهو رمز غنيّ بالصور، وطيّع ومفهوم ومستساغ وله مساحة كبيرة، ويسمح لاستعمال العديد من التشابيه.

وهناك ممثلان: الخطيب والخطيبة، هي جميلة مزينة. وهناك المكان: الخِدر أو غرفة العرس التي تسبح في جوّ مسكِر مكوّن من الأنوار والعطور. والحب يحوم فوق الكل، الحب المتسامي المنقّى، فهذا الزواج ليس أرضيًا بل سماويًّا.

هذا الموضوع يخوضه كل الغنوصيّين، ولكن بأشكال مختلفة: وقد تحوّل إلى تأملات فلسفيّة في نصوص ونظريات فالنتينيّة، لكنّه أصبح أيضًا حكايات رومانسية مليئة بتفاصيل جنسيّة دقيقة.

الزواج يرمز إلى الملء (البليروما) ويحمل صفاته الأساسيّة. والزواج رمز المعرفة، والروح فيه تتعرّف عريسها الذي نسيت تقاطيع وجهه عندما سقطت من البيت الأبوي، ثمّ تذكرت أصلها. (كتاب تفسير الروح ن.ح ٢/٦، ١٣٢/٢١-٢٥).

الزواج رمز الحقيقة، ويتعاكس مع الحيلة وكذب العالم السفلي، الذي يرمز إليه اتحاد الروح مع الأركونات الكاذبة. فالحبيب الذي تتحد به الروح هو العريس الحقيقي (المصدر نفسه ن.ح ٢/٦، ١٣٣/٨).

الزواج لدى الغنوصيّين هو رمز الحريّة: أي هو مصير الأحرار لا العبيد ("إنجيل فيليب" ن.ح ٢/٣، ٦٩/١-٤): متحررين من عالم الأركونات ومن قيود الغرائز، فمن الحقيقة تنبع الحرية: "إذا كنتم تعرفون الحق، فالحق سيحرركم، فالجهل عبد والغنوصيّة حريّة" (المصدر نفسه ن.ح ٢/٣، ٨٤/٨-١١).

الزواج رمز الراحة، وكما يقول كتاب "الخطاب الحقيقي": "لن تركض الروح من عشيق إلى آخر، إنها وجدت شرقها (أي قبلتها وهدفها)، وارتاحت في الذي يرتاح، لقد استسلمت داخل غرفة العرس" (ن.ح ٦/٢، ٣٥/٨-١١).

الزواج رمز الفرح لأنه يشير إلى نهاية سفرات الروح المؤلمة: "كانوا متحدين في العقل (... في إتحاد بهيج، لأنه زواج في الحق وراحة لا فساد فيها، في كل ذكاء وتنوّر يكتمل في سرّ لا يوصف". (كتاب "البحث الثاني لشيت العظيم"، ن.ح ٧، ٢/٦٦، ٣٤-٦٧،١١).

الزواج رمز الجمال، أي الجمال الداخلي الذي تتّصف به الروح في أجمل زينتها: "ها قد أصبحت واعية نورها، فخلعت هذا العالم ولبست ثوبها الحقيقي رداء العروس، لبسته لجمال النفس وليس لكبرياء الجسد". (كتاب "الخطاب الحقيقي"،

ن.ح ٦، ٢/ ٢٣، ٢-٨).

الزواج رمز الطهارة، لأنه روحي، ويتعاكس مع الاتحادات النجسة للعالم التحتاني.

ما هي صفات هذا الزواج؟

يعبّر إنجيل فيليب عنها بهذه الكلمات: "إذا كان الزواج النجس خفيًا، لكن بالعكس، هذا الزواج الطاهر من كل وصمة هو زواج سريّ حقيقي. ليس جسديًا ولكنه طاهر. ليس من عالم الرغبة بل الإرادة. لا ينتمي إلى الظلمة والليل ولكن إلى النهار والنور (ن.ح ٢/٣، ٨٢/٤-١٠).

هذا الزواج هو أزليّ لأنه لا يعرف تقلّبات الرغبة:

"هذا الزواج ليس مثل الزواج الجسديّ. فالذين اتحدوا بحسبه يسكرون من هذا الاتحاد، وينعتقون كما من ثُقل، من تقلّب الرغبة، ولا ينفصل الواحد عن الآخر ((...، وإذا اتحد الواحد بالآخر يصبحان حياة واحدة" ("تفسير الروح" ن.ح ٢/٦، ١٣٢/٢٧-٣٥).

هذا الزواج أيضًا خَصِب. فإزاء زرع الأراكنة النجس، الذي ولدت منه مسوخات، لدينا عكس ذلك في زرع العريس، الذي يعطي الروح أولادًا يحيون، فهي "النفس المحيّيه" ("تفسير الروح" ن.ح ٢/٦، ١٣٤/١-٤). وتحت غطاء هذا التشبيه، تكون الأفكار بمثابة الأطفال.

هذا الزواج هو زواج حبّ بعكس التزاوج النابع عن المصلحة الذي هو زنى. إذ يحبّ الزوج والزوجة بعضهما في لذّة مشتركة. (المصدر نفسه ن.ح ٢/٦، ١٣٣/٣١-٣٤).

هذا الزواج أخيرًا، هو صورة للإتحاد الأول الذي انكسر عندما تركت الروح الملء: "في البداية كانا يتحدان أمام الآب، قبل أن تفقد الروح عريسها وأخاها. ثم من

جديد هذا الزواج سيربطهما الواحد بالآخر. الروح تتحد بحبيبها الحقيقي وسيّدها الطبيعي". (المصدر نفسه ن.ح ٢/٦، ١٣٣/٤-٩).

هـ- وحدانية الذكر والأنثى "الأندروجينية"

إن الاتحاد في الزواج يؤول إلى اندروجينية (باليونانية: أندرا = ذكر أو رجل وجوني = إمرأة)، فعندما يتّحد الرجل بالمرأة يصيران واحدًا، ولن يعود هناك رجل أو امرأة، ولكنهما كائن واحد. وكما رأينا، كيف أن الجنس الأرضي أصبح سماويًا، في صورة الزواج، وأنه سوف يُلغى في اتحاد روحيّ، يصير الذكر والأنثى واحدًا - أي اندروجينًا. والإتحاد الأندروجيني يُصلِح ما أفسده إنفصال الجنسين عن بعضهما، ذلك الذي حدث لدى سقوط العنصر الأنثوي داخل المادة، (أسطورة صوفيا، راجع "فالانتين" في الفصل السابق). وهذا الإنفصال قاد إلى الموت. لكنّ في "إنجيل فيليب" شرح لذلك بميثولوجية مستنبطة من الكتاب المقدس: فبحسب تفسيره، كان آدم وحواء في الفردوس يمثّلان باتحادهما حالة المعرفة والحياة، ولكنّ انقسامهما إلى كائنين إثنين منفصلين، هو الذي قاد إلى الجهل والموت فنقرأ: "عندما كانت حوّاء في آدم لم يكن للموت وجود، وعندما انفصلت عنه، دخل الموت. فإذا، من جديد، عادت حواء في آدم وأخذها فيه، فحينئذ يزول الموت". (ن.ح ٢/٣، ٦٨/٢٢-٢٦).

وهذا ما سيحدث أيضًا للجنس البشري كلّه:

"لو لم تنفصل المرأة عن الرجل، لما ماتت مع الرجل، فانفصالها كان أصل الموت" (ن.ح ٢/٣، ٧٠/٩-١٢).

وحسب كاتب إنجيل فيليب عينه، المسيح هو الذي سيمحو هذا الانفصال:

"من أجل ذلك جاء المسيح، لكي يصحّح هذا الانفصال الذي حدث منذ البداية، سيعيد اتحاد الاثنين (الرجل والمرأة)، سيحيي كل الذين كانوا موتى بالإنفصال وسيوحّدهم. (ن.ح ٢/٣، ٧٠/٩-١٧).

إن بحث الغنوصيّ ينتهي في اللحظة التي يستعيد فيها اندروجينيّته المفقودة، ويتحد بتوأمه السماوي. كما يحدث للأرواح والأنفس، فعندما يفنى الواحد في الآخر، سيجد نفسه ويفتح أبواب المعرفة:

" قال يسوع: إن الذي يشرب من فمي سيصبح مثلي أنا، وأنا سأصبح هو، والأشياء الخفيّة ستنكشف" (إنجيل توما ن.ح ٢ جملة ١٠٨)[١٧].

في صوفيّة التعرّف هذه يذوب الواحد ويصبح الآخر، وكلاهما يصبحان واحدًا. ويتّحد الفاعل والمفعول، والكاشف يصبح مكشوفًا في معرفة موحى بها:

" أنا أنتِ وأنتِ أنا، وحيث أنتِ أكون أنا. أنا موزَّع في كل شيء وحيثما تريدين تجمعينني، وبجمعي تجمعين ذاتكِ". ("إنجيل حواء"، مذكور لدى إبيفانس في كتاب البناريون ٢٦/٣-١).

" لا يتحقق الواحد فقط عندما يصبح ذلك الآخر، ولكن عندما يصبح آخر يصبح واحدًا:

" يجب علينا أن نستقر في الواحد...، كن مستعدًا كالعروس التي تنتظر عريسها، لكي تكون ما أنا وأصير أنا ما أنت. إستقر في غرفة العرس في زرع النور، استلم مني العريس، إعمل له مكانًا وستجد نفسك فيه" ("الطقوس المرقسية" يذكرها إيريناوس في كتابه "ضد الهراطقة" ١/١٣-٣).

إن هذه الصوفيّة الذائبة تُلغي كل الحواجز وكل تباين وقطبية تميز هذا العالم التحتاني. وهذا التقارب بين المتضادّين هو الملجأ الوحيد والأخير للفكر بغية التعبير عمّا لا يمكن التعبير عنه، فيعطي الواحد صورةً ليغدو العارفُ معروفًا:

" قال لهم يسوع عندما تجعلون الاثنين واحدًا، وعندما تجعلون الباطن كالظاهر والظاهر كالباطن والأعلى كالأسفل، وإذا جعلتم الذكَر والأنثى في واحد، حتى لا يعود الذكَر ذكرًا ولا تعود الأنثى أنثى. وعندما تجعلون ثانية عينين مكان عين ويدًا مكان يدٍ، ورجلا مكان رجل، وصورة مكان صورة، عندها ستدخلون الملكوت. ("إنجيل توما" ن.ح ٢/٢ الجملةَ ٢٢، وهي (٢٧) في الترجمة العربية).

القسم الخامس

الغنوصيّون والمجتمع

قليلة هي المعلومات التي وصلتنا عن الأحداث التي عاشتها الجماعات الغنوصيّة. فنحن نعرف الكثير حول عقائدها، إما من قِبل آباء الكنيسة المتخصصين في البدع أو من قبل الغنوصيّين أنفسهم، لكن ليس لدينا أي شيء تقريبًا حول طريقة عيشهم أو نظام جماعاتهم. والقليل الذي استطعنا أن نجمعه حول هذا الموضوع، جاءنا، من آباء الكنيسة بشكل خاص، أي من خصوم الغنوصيّين، وعلى هذا، علينا أن نكون فطنين وحذرين في التعامل مع هذه المعلومات، بسبب ضعف مصادرنا.

أما الكتّاب الغنوصيّون، فقد بقوا متحفّظين حول نظام جماعاتهم وترتيبها واجتماعاتهم الدينية، وذلك بسبب حذرهم الشديد، لأن جماعاتهم كانت مضطهَدة.

وبما أن الغنوصيّة ديانة، يمكننا أن نتساءل: كيف رأوا هذه الديانة من الناحية الاجتماعية؟ وكيف كانت في موقفها مع المسيحية والوثنية (التي كانت دين الدولة)، إذ يبدو أن الدولة الرومانيّة لم تهتم كثيرًا بالغنوصيّة، وكانت أحيانًا تخلط بين المسيحيين والغنوصيّين. فالأولون كانوا يُعَدّون بدعة مثل الغنوصيّين، والكل يُعَدّ زارع اضطراب وبلبلة، وكانوا ينظرون إليهم بكثير من الحذر. فكيف رأى المسيحيون الأوائل الغنوصيّين؟

الغنوصيّون كما رآهم المسيحيون

أ- رغبة المسيحيين في التمايز عن الغنوصيّين

لدينا نص بالقبطيّة، يُنسب إلى بطرس الإسكندري وهو البطريرك السابع عشر للجماعات المسيحية في مصر. وقد عاش حوالي سنة ٣٠٠م لدى اضطهادات الإمبراطور ديوكليسيانس، وكان، هذا الإمبراطور، قد أصدر ثلاث مرات أوامر

بـالاضطهـاد، بين عـامي ٣٠٢ 305 – م. وكـان القـرار الأول يـأمـر بـإلغـاء الكنـائس ومصـادرة الكتب، والثاني بإجبـار الإكليروس على تقديم القرابين لآلهـة الدولة، والثالث أمر بتعميم القرار على كل الجماعات المسيحية. يقول هذا النص:

" لا تحاربـوا الهراطـقة من الصباح إلى المساء، فـالاضطهـاد ثقيل، ولكن بـالعكس، إحذروا، فهم بإمكانهم أن يسلموكم بـين أيدي الذين يحكمونكم وسيسحقونكم بأرجلهم حتـى لا تستطيعـون القيام. ...أيّ سبب يدفع المؤمن أن يتكلم مع غير المؤمن؟ أيّ توافق هناك بين المسيح وبـين الشيطان؟ أيّ شركة ممكنة بين الكنيسة والهراطقة الذين لا اتـفاق لـديهم مع المسيح ولا مع كنيستـه؟ لا تصلّـوا في كنـائس الهـراطقـة، لا تقبلـوا الزيت من أياديهم، بل إهربوا من كنائسهم " .

نرى إذن أن الأزمنـة كانت مضطربـة، وأن الصدامـات في مصر كانت بـين المسيحيين وبين الهـراطقة. ويبدو أنها كـانت عديدة، والهراطـقة المقصودون هم الغنـوصيّون. هكذا يـوضح بطرس الإسكنـدري، وفي بقيّـة عظتـه يعطي مـا هو أكثر، ويـوضّح أن المقصـود بالهـراطقة هم أتبـاع بدعـة السيمـونيين، أي جمـاعـة سمعان الـسامري أحـد مؤسسي الغنوصيّـة. أما التـاريخ الذي فيه يـضع بطرس الإسكنـدري نفسه، فهـو كبير الأهمية. فـالجماعـة المسيحيـة مهـدّدة بخطـرين: من جهـة، هنـاك الخطـر الخـارجي من قـوّة الإمبـراطوريّة الغـاشمة المضـطهِدة، ومن جهـة أخرى هنـاك الخطـر الـداخلي، أي قيام تجمعات غنوصيّة منتعشة في مصر خلال تلك الفترة.

لدينا بعـض الملاحظات حول موقف المسيحيين من الغنوصيّـة، تنبع من هذا النص، وهي تبدو كـأنها نموذجية، لأن إيضـاح بطرس الإسكندري وعـصره لا يعطيـاننا النمـاذج الهرطوقية نفسهـا، أو صيغة التعـامل مع الهراطقة. فهنـا الموقف ضدّهم يتشكّل كبؤرة، وينبغي أن نـأخذ بعين الإعتبـار التطور الـزمني لهذه الحـركة الديـنية. لذا فـالنصيحة التي يـقدّمهـا البطـريـرك لسـامعيه هـي: " تجنب كل تـعـامل مـع الهـراطقـة ولأي سبب كـان " ، ويستشـهد بطرس الإسكـندري بمـا يقولـه القديس بولـس بخصوص التصرف مع

الوثنيين في قورنثيه (٢قور ٦/ ١٥-١٦)، والتعليمات التي يعطيها بطرس الإسكندري للمسيحيين دقيقة جدًا: "لا تُصلّوا في كنائس الهراطقة، لا تقبلوا الزيت من أيديهم"، كما أن عليهم أن يتجنّبوا الجدالات اللاهوتية والمناقشات العامة معهم. "لا تتعاركوا معهم من الصباح حتى المساء لئلا يجلب ذلك أنظار السلطات المدنيّة"، فالمسيحيون كانوا يعيشون أزمنة مضطربة. من جهة أخرى يشك البطريرك في ولاء الغنوصيّين وتضامنهم مع بقيّة المسيحيين في حالة الاضطهاد. إذ يبدو أن الخيانات والشكاوى كانت هاجسه، وهذا ظاهر في عظته، فيحذّرهم: "سوف يسلمونكم بين أيدي الذين يحكموننا".

ونلاحظ أيضًا لدى بطرس الإسكندري، في تطرّقه إلى خصومه، ذكر طبقات الغنوصيّين الدينية، فيذكر أن لديهم كنائس بل عندهم أسقف، وهذا يعني أن بيوت العبادة لديهم كانت تسمّى كنائس، وكانوا يطلقون على رئيسهم إسم أسقف برغم أنه لا ينتمي إلى الشركة مع باقي المسيحيين.

إن هذه الطريقة في التفكير هي سلاح كل من حارب الهراطقة والحركات الانفصالية، فهم يعدّونها نسخًا ممسوخة من المسيحية، ولهذا سُميت "هرطوقية" أي مارقة عن الدين القويم، وليست ديانة أخرى غريبة.

ب- الغنوصيّون والسلطات المدنية أو الدولة

يشدّد آباء الكنيسة في كلامهم كثيرًا حول موضوع علاقة الغنوصيّين بالدولة. فالقديس إريناوس في عرضه لتعليم بتوليميه، بكتابه الأول ضد الهراطقة ٦/ ٤، يعطينا بعض التفاصيل عن تصرّفهم:

"يأكلون بلا تمييز إذا ما كانت اللحوم مقرّبة للأوثان، فهم لا يعدّون ذلك نجاسة، إنهم أول من يتردد على الأفراح والأعياد الوثنية التي تقام على شرف الأصنام، بعض منهم لا يتورع من حضور المشاهد المسرحية الدمويّة حيث يتناحر المصارعون مع

الحيوانات أو بعضهم مع بعض ".

كان الغنوصيّون يشاركون في الممارسات الوثنية التي ينفر المسيحيون منها ويرفضون حضورها، بل بعضهم دفع حياته ثمنًا لذلك الرفض (الشهداء). وفي هذا، يتبيّن أن لدى المسيحيين رغبة أن لا يُحسَبوا مع الغنوصيّين. مع ذلك ليس في النصوص الغنوصيّة ما يؤكد الذي أورده إيريناوس.

فتصرف الغنوصيّين قد يكون من منطلق لاهوتي عدّه إيريناوس نوعًا من الأمانة لجذورهم، ولكن إستنتاجه بشأن السلوك الأخلاقي مباشرة غير مؤكّد لدينا. فالغنوصيّون بسبب طبيعتهم الروحانية يقولون إنهم سيخلصون بدون القيام بأيّ أعمال صالحة، فهم لا يمكن أن يتنجّسوا مهما فعلوا. هذا ما نقرأه في كتاب إيريناوس (١/٦-٢):

" لا يهتمون بالأعمال، حتى لو اقترفوا أمورًا منكرة، فهم لا يرون أي مانع من التعامل مع أمور هذا العالم، وقد يقعون في الزنا والنجاسة، ولكن في الوقت عينه يرافق ذلك زهد مبالَغ فيه "، كلتا الحالتين، في نظر آباء الكنيسة، جديرتان بالإنتقاد والرفض.

من قراءة النصوص الغنوصيّة مباشرة التي وصلت إلينا، يبدو أن عندهم زهدًا واضحًا، فقد كان الغنوصيّون يعبّرون عن انفصالهم عن هذا العالم، وأن جانب الإنحلال -الذي نقرأه عند خصومهم -يبدو، على الأغلب قائمٌ على إشاعات وأساطير حيكت عنهم وليست واقعية.

ج- " الكنيسة " الغنوصية

من ناحية الآباء، تُعدّ الكنيسة الغنوصيّة صورة مشوّهة للكنيسة المسيحية، إذ بينهما نقاط مشتركة، لكنها معكوسة. وقد ارتكزت ملاحظات آباء الكنيسة على نقطتين عدّوهما من صفات الغنوصيّين الأساسيّة: رفض السلطة وانعدام كل تنظيم.

يرفضون السلطة كما تراها المسيحية (الشمامسة والكهنة والأساقفة)، ومن هذا

الرفض ينبع رفض الاعتراف ببطرس، رأس الكنيسة، ورفض التعاقب الرسولي (راجع في بداية هذه الدراسة موضوع: المصادر غير المباشرة)، وهذا الرفض يؤول، بحسب آباء الكنيسة، إلى الاضطراب والفوضى.

هناك نص من ترتليانس يوضّح هذه النقطة:

" يجب عليّ أن لا أنسى أن أعطيكم فكرة عن تصرّف هؤلاء الهراطقة، وأن أشدّد على كونهم وضيعين من هذا العالم، وهم واطئون إنسانيا إلى أبعد حد، فهم لا يعرفون الجدّية ولا السلطة ولا النظام، وهذا يتلاءم مع معتقداتهم. بادئ ذي بدء لسنا نعرف من هو الموعوظ ومن هو المؤمن عندهم، فكل المشاركين متساوون، وكلهم يسمعون ويصلّون بالطريقة نفسها بضمنهم الوثنيون إذا وجدوا بينهم. إن هذه " البساطة "، في الحقيقة مبنيّة على رفض تام للنظام " (التعليمات ٤١).

إن هذا التساوي، أمام المعرفة بين الغنوصيّين، يُصبح – في نظر ترتليانس – علامة على الخلط والفوضى والارتجال في مناصب السلطة:

" فرسامتهم تُعطى بشكل عفويّ...، وقد يعطون أحيانا السلطة لأتباع جُدد، وأحيانًا لأناس غير متفرّغين ولديهم مسؤوليات ماديّة في المجتمع، وأحيانًا يعطونها أناسًا خرجوا من ديننا. والنتيجة هي أن مطرانهم اليوم يمكن أن يستبدل غدًا بشخص آخر، والشماس الإنجيلي اليوم ممكن أن يصير قارئًا غدًا، والكاهن اليوم يمكن أن يصير علمانيًا غدًا، فحتى العلمانيون يجوز عندهم أن يقوموا بدور كهنوتي " .

د- دور المرأة عند الغنوصيين كما رآه بعض آباء الكنيسة

هناك علامة واضحة على غياب التنظيم في الجماعات الغنوصيّة وهو حضور المرأة، ويعدّ آباء الكنيسة هذا عاملَ اضطراب.

وأقسى من تكلم في هذا الموضوع هو ترتليانس إذ قال:

" أما بالنسبة إلى النساء فأيٌّ بغايا يعملن! لأن لهن الوقاحة في التعليم والمشاركة

في النقاشات وممارسة طرد الشياطين، ويعتقدن أنهنّ قادرات على القيام بشفاءات بل وحتى بالتعميذ" (التعليمات ١ ٤١).

في نظر الآباء المدافعين، من خصوم الغنوصيّة، لا تطيع المرأة الغنوصيّة واجب الحياء الذي يجب أن تخضع له كل امرأة مسيحية صالحة. صحيح أن القديس بولس كان يعدُّ بعضًا من النساء من بين مساعداته، ولكن ألم يأمر المرأة أن تبقى في واجبها الاجتماعي الخفي داخل الكنيسة؟ ألم يقل إن على المواهب النبوية أن تبقى مستورة داخل الخدمة وليس في التعليم؟ ألم يمنع المرأة عن الكلام في الكنيسة؟ (١قور ١٤/ ٣٤). والمرأة التي تكسر هذا الواجب الخفي، وتظهر وتتكلم في الجماعة، رآها بعض آباء الكنيسة كساقطة، والتقليد المسيحي اليهودي يُجمع على هذا الموقف.

لكن هذا التيار المناهض للمرأة يختلف كليًا عن الموقف الذي اتخذه المسيح تجاهها إذ هو الذي أعطاها إمكانية الكلام (كالسامرية ومريم المجدلية(...، وعلم وشفى بعضهنّ يوم السبت، وسمح لهن الاقتراب منه حتى وإن كان المحيط يعدّهن غير طاهرات.

إن نشر رسالة المسيح، على يد القديس بولس، شهد نوعًا من التراجع بالنسبة إلى تعليم المعلم يسوع حول بعض النقاط، والحق يقال إن الغنوصيّين في موقفهم من المرأة، أقرب إلى موقف المسيح تجاهها في الجماعة، برغم أن هذا أثار ضدهم حنق بعض آباء الكنيسة الذين لم يترددوا في اعتبار هذا الدور داخل الغنوصيّة إنحلالاً خلقيًا.

حتى إن بعض المعلمين الغنوصيّين كانت ترافقه امرأة رفيقة أو تلميذة أو هي بمثابة موحية لهم، مثل سمعان السامري، كانت ترافقه هيلين. لكن هل هي إمرأة حقيقية أم أسطورة؟ وكانت مارسلينا ترافق كاربوكرات، وفيلومين المثقّفة كانت ترافق أبيلِس.

وقد اشتهر بين صفوف الغنوصيّين عدد من النساء المثقفات (كتب ابتولميه، كما رأينا، رسالة تعليمية إلى تلميذته فلورا)، لكن هذا لم يكن يرضاه آباء الكنيسة، بل رأوا أن أولئك النساء المثقفات، تركن عالم النساء لكي يسرن في الطرق، وهذا مدعاة لكل الشائعات.

هـ- التبشير الغنوصي

كان المعلمون الغنوصيّون يتنقلون ويسافرون على غرار المسيحيين. كانوا يقطعون طرق المقاطعات الرومانية، جيئة وذهابًا لنشر رسالتهم. فيفضّل البعض المدن الكبرى لإعطاء تعاليمهم مثل فالنتين في روما، ولكنّ بعضهم الآخر يتّجه نحو المناطق النائية والمقطوعة.

أما الأسلوب فهو صيغة الدرس الأكاديمي، لكن بعضهم يفضّل المناظرات العامة، التي يقف فيها أحد الغنوصيّين ضد المسيحيين. وقد حفظت لنا، الآداب المسيحية القديمة، بعضًا من قصص هذه المناظرات. ففي نهاية العالم القديم، كانوا يحبّون هذه المساجلات الكلامية التي كانت تدور في الساحات العامّة، وكانت تتميز ببراعتها البلاغية، وتسحر جماهير الشعب والنخبة الفكرية على السواء.

وكل الأدب المنسوب إلى القديس كليمنضس، يصف لنا، بشكل أقرب إلى الأسطورة، المساجلات التي كانت تحدث في روما بين بطرس وسمعان السامري. كل واحد منهما يحاول أن يجعل من السامعين تلاميذ لتعلميه، فينجذب إليه بعض الشخصيات المهمّة.

ويشهد إيريناوس، أسقف ليون، على تأثير معلّم غنوصيّ في منطقة وادي نهر الرون، في فرنسا، وهو مرقس الساحر، كان هذا يجتذب تلاميذ عديدين، وخصوصًا من الطبقات الغنية:

" أحدهم يحمل إسم مرقس، كان داهية في الألعاب الكلامية والسحرية، وقد خدع عددًا كبيرًا من الرجال، وعددًا لا يستهان به من النساء. فمثلا كان يعدّ ارتباطه المباشر، مثل أيّ "غنوصيّ" أو أي "كامل"، بالقدرة العظمى، ويعد نفسه تجسيدًا لها، أي لتلك القِوى التي لا تُرى... فمرقس الساحر يعدّ نفسه مجترح عجائب في أعين الذين إنخدعوا به وفقدوا كل تمييز وعقل" (ضد الهراطقة ١، ١٣/ ٢).

ومن بين الذين اهتدوا على يد مرقس هناك، بحسب إيريناوس، نساء إنتمين إلى

طبقات المجتمع العليا، فيقول:

" إنه شديد الإهتمام، خصوصًا بالنساء، وبينهن نبيلات وغنيّات من اللواتي يلبسن فساتين ذات طيّات كثيرة مصنوعة من الأرجوان" . أولئك النسوة كان مرقس يجتذبهنّ بنبوءآته ووعوده.

ويصف إيريناوس أسلوب ذلك الرجل قائلا:

" إذا ما أراد أن يجتذب إحداهن، إمتدحها بالقول: " أريد أن أعطيك جزءًا من نعمتي، ها إنّ نعمتي قد نزلت عليكِ، إفتحي فمك وتنبّئي" ، فتجيب المرأة عندئذ وتقول: " أنا لم أتنبأ ولا أعرف أن أتنبأ" ، لكنه يقوم بتعاويذه ويسحر ضحيّته فيقول لها: " إفتحي فمك وقولي أيّ شيء، حينئذ ستصير نبوءة" !

ويضيف إيريناوس شارحًا:

" أما هي، فيصيبها الغرور الغبي بهذه الكلمات، فتشعر أن قلبها يقفز في صدرها، وتبدأ بقول كل الحماقات وما يخطر على بالها. ومنذ تلك اللحظة كانت هذه المرأة تعدّ نفسها نبيّة وتشكر مرقس، وتهرع إلى مكافأته" !

وقد تكون هذه المكافأة مضاعفة: فالمرأة، من جهة، كانت تعطيه أموالا، " وهذا هو أصل أموال وغنى ذلك الرجل" يقول إيريناوس. ومن جهة أخرى كانت تمنحه جسدها. (ضد الهرطقة ١، ١٣/ ٢-٣).

وأحيانا، لكي تخضع النساء لإرادته، كان مرقس يستخدم طلاسم وتعاويذ. ويصف إيريناوس ذلك مؤكدًا بحدث جرى في آسيا الصغرى: " أغوى مرقس الساحر إمرأة أحد الشمامسة الإنجيليين، فتبعته في كل تنقلاته" . (ضد الهراطقة ١، ١٣/ ٥)، لكن جماعة المسيحيين تدخلت وخلّصتها من تأثير مرقس عليها.

أما تلاميذ مرقس، فقد كانوا قد أغووا عددًا كبيرًا من النساء، حتى وصلوا مناطق وادي الرون الفرنسية (ضد الهراطقة ١، ١٣/ ٧). ويعطي أسقف ليون هذه المعلومات لأنه استقاها من نساء، تائبات، كن قد وقعن في حبائل هؤلاء الرجال ردحًا، ثم عدن إلى المسيحية.

الغنوصيّون كما رأوا أنفسهم

لا يحب الغنـوصيّـون الكلام عن أنفـسهم، ولذلـك أسبـاب عـدّة تبرر قلّـة وصف الغنـوصيّين أنفُسَهم. إنه الحـذر الذي يـسيطر على كل أقليّـة مضـطهَدة، وهـذا يسهل تفهّمه. ولكن هناك أيضًا نظـرتهم إلى ذواتهم: فهم يعدّون أنفسهـم النخبة و "بدعتهم" – حسب ما يقـول خصومهم من آباء الكنيسـة – تخضع لقانون التورية في التعليم كما في الممارسـة. وتعتمد طقـوس التنشئـة على إطلاع التلميذ، الذي يـدخل الجماعة، على الأسرار تدريجيًا، والإطلاع على الكتب يُعد شيئًـا سرّيًا، والطقوس بين أعضاء الجماعة كان دورها تقوية التماسك تجاه من هم خارج جماعتهم.

ويمكننـا القول إن الخوف كـان يتملّكهم من وجـود أعضاء، هم جـواسيس مزدوجين. فإبيفانس السلاميناي يحكي إنه استطاع أن يتغلغل في جماعتهم في مصر، وادّعى أنه يتقبّل إيمانهم لكي يفضح أمرهم.

ولهـذا وصلنا الأدب الغـنوصيّ مقطّعًـا مبعثرًا بـين ما قالـه خصومهم وأعـداؤهم، وهو مليء بالانتقادات، بل بالوصف المزدري خلال فترة طويلة من الزمان، ولم تأتنا البحوث الآثاريـة والتاريخية بأي شيء عنهم يشفي غليلنـا، عدا بعض الرسوم الغنوصيّة التي وُجدت في روما في "كاتدرائيـة الباب الكبير"، وشاهد قبر لامرأة تسمّى "فلافيا صوفي"، اكتُشف في رومـا ويعود إلى القرن الثالث الميلادي. في الـواقع، لا يمكننا إلا أن نكتفي بما وصلنا مـن شهادات أدبية وتـاريخيّة غير واضحـة. أما الاكتشـافات العلمية اللاحقة، فهي وحـدهـا سـاعـدتنـا أن نملأ بعض الفـراغ في معـرفتنـا أسـس وحياة الغنـوصيّين الإجتماعية، ونحن، عالميًا، لسنا إلا في بداية ما نعرفه عن ذلك.

كيف يمكن أن نستخلص أكثر كميّة ممكنة من المعلومات من المصادر التي لدينا؟

أولاً أن نعيد النـظر في مـا نقله إلينا خصومـهم، أي أن نفكك الجـانب الإنتـقادي، ونتجاوز ما تقيمه رموز الغنوصيّين وتشابيههم من حواجز بيننا وبينهم. ولنتساءل إذا لم تـكن هذه مجرّد غطـاء وإشارات مفيـدة لهم فقط، إنهـا بمثـابـة "شفرة"، عندئـذ قد

نفهم من خلالها بعض المعلومات عنهم، فبصورة عامة تغرق هذه الكلمات بأسلوب تجريدي عن أنفسهم وعن خصوم الغنوصيّة. فبهذه المعلومات المعكوسة قد نتوصّل إلى رسم صورة عن الكنيسة المسيحية، كصورة مقلوبة (نيجاتيف). وكفكرة يحملها الغنوصيّون عن جماعاتهم.

أ- علاقة الجماعات الغنوصية بالمسيحية

يقف كل طرف إزاء الطرف الآخر، ويستعمل كلاهما الوسائط الجدليّة نفسها، المسيحيون يمارسون التهميش ضد الغنوصيّين (كما رأينا في موعظة بطرس الإسكندري)، فيردّ الغنوصيّون على ذلك بتهميش المسيحيين.

ويبدو أن شعور الغنوصيّين، كونهم جماعة مختارة، جعلهم ينظرون إلى الآخرين بعين الإحتقار، فعدّوا أنفسهم خيرة المسيحيين والمختارين، أما بقية المسيحيين فكمسيحيين من طبقة ثانية، غير قادرين على الوصول إلى المعرفة الحقيقيّة.

ويقسم فالنتين البشرية إلى ثلاث طبقات: (الماديون والنفسانيون والروحيون)، ويسمّي المسيحيين " النفسانيين " إذ عندهم النفس Psyché ولكن ليس لديهم روح، إذ لا يمكنهم الولوج الحقيقي إلى المعرفة. مع ذلك، إذا اهتدوا، بإمكانهم الخلاص. لكن هذا ليس حال الماديين الهيوليين: (كلمة Hylée مادة باليونانية)، فلهؤلاء يستحيل الخلاص.

ويستعمل المسيحيون والغنوصيّون عين الأسلوب في اتهام بعضهم لبعض، فيعدّ الواحد الآخر في الباطل، وكل واحد يدّعي أنه يمتلك كلّ الحقيقة.

وإزاء هذا الجمهور الكبير من آباء الكنيسة الذين حاربوا البِدَع، لدينا مؤلف "كتاب الشهادة للحقيقة" (ن.ح ٩/ ٣)، الذي يحذّر أصدقاءَه الغنوصيّين من أضاليل المسيحيين، فرأيه أساس كل هذه الأضاليل يكمن في تمجيد الجسد: إما بقبول الزواج، أو بقبول الإنجاب الذي ينظّمه قانون خاص، أو بالرغبة في الاستشهاد الذي لا يمكن

تبريره إلا إذا كانت هناك قيامة الأجساد. فهؤلاء الذين يقدّمون ذواتهم للإستشهاد يسيرون وراء الأركونات – سادة كل الأجساد! من ناحية أخرى، عندما يقولون: "نحن مسيحيون"، لا يتجاوز هذا لديهم مستوى الكلام، ويضيف، بشيء من السخرية: "إذا ما كانت كلمات الشهادة تعطي الخلاص، فإذن كل إنسان يستشهد يخلص!" (ن.ح ٩/٣، ٣١، ٢٣/٣٢-١٣).

نستشفّ من بين هذه الأسطر جدلاً حول إسم "المسيحي" وهو الاسم الذي كان الغنوصيّون (على الأقل هؤلاء الذين يتّبعون التقاليد المسيحية) يُطلقونه على أنفسهم، ويحاولون أن يخلعوه عن أتباع الكنيسة الكبرى.

هناك عامل آخر في الجدال، يخصّ السلطة الكنسيّة. إن كان المسيحيون يعيّرون خصومهم بالفوضى وعدم وجود سلطات لديهم، كان الغنوصيّون يرون في السلطة سببًا لكل الأخطاء التي ترتكبها الكنيسة الكبرى، وعلامة على خيانتها لرسالة المسيح، ويعدّون أنّ المسيحيين يعطون أنفسهم سلطاتٍ كاذبة.

في "رؤيا بطرس" كلمات قاسية بهذا الخصوص:

"هناك آخرون بين هؤلاء الذين هم في خارج عددنا، يعطون أنفسهم أسماء أساقفة وشمامسة، كما لو كانوا قد تسلّموا من الله سلطتهم، ويضعون كاهلهم تحت نير رؤساء ليحكموهم، هؤلاء هم قنوات يابسة" (ن.ح ٧/٣/٧٩، ٢٣/١/٣١).

نلاحظ من هذا النص تأكيد هذا الوعي النُخبوي لدى الغنوصيّين تجاه الآخرين الذين يسمّيهم "هؤلاء الذين هم خارج العدد المقسوم لنا".

فلا يرى الغنوصيّون أي نفع في المؤسسات المادية، وخصوصًا للوصول إلى الخلاص، لأن السلطات تخضع لنظام هذا العالم، وهي مثله سوف تكون مستعبَدة لقِوى الأركونات.

ومن المعتقد أن تعابير مثل الخالق، الفاطر (ديميرج) والأركونات (السادة) تشير بشكل مستور إلى ما كان يقوم من جدال ضد السلطة الكنسية الكبرى، وهذا هو رأي

العالمة إليان باغلس في مقال لها (الفاطر والأراكنة: نظرة غنوصيّة على المطران وكهنته)[18]. فالمعرفة هي السلطة الوحيدة التي تقبلها الجماعة الغنوصيّة، إذ هي صورة للجماعة السماويّة الروحية والخالدة. "فالكنيسة العليا تتكون من رجال كانوا قد وُجدوا قبل الأيونات، وهي تشبه طبيعة الأرواح القديسة الخالدة والأزلية، أما أعضاء الجماعة الذين في هذا العالم، فسوف يلتحقون بها بعد نهاية سفرتهم الأرضية" ("الكتاب ثلاثي الأبحاث" ن.ح ١/ ٥).

ليس إذن للجماعات الغنوصيّة أيّ إدارة مركزية، كما للكنيسة الجامعة الكبيرة، والعلاقات - بين الجماعات الغنوصيّة الموزّعة في الإمبراطورية الرومانية - يديمها وينعشها المسافرون والمبشّرون، وكانت الكتابات الأدبية الغزيرة، هي الرابط بين هذه الجماعات، والعلاقات تنتعش بهذه الرسائل الموجّهة من جماعة إلى أخرى.

مع ذلك، كانت هناك أيضًا إختلافات بين الغنوصيّين، وهذا الذي نقرأه في كتاب "شهادة الحقيقة" (ن.ح ٩/ ٣) حيث يندد المؤلف بتلك الجماعات الغنوصيّة التي تمارس الأدعية المتكرّرة، دليل على تلك الإختلافات. وفي كتاب "تفسير المعرفة" (ن.ح ١١/ ١)، دليل آخر حيث يندّد الكاتب بجماعته لأن بينها حسد وغيرة.

ب- موقف الغنوصيّين من السلطات المدنيّة

تعطينا الشهادات المباشرة، التي بين أيدينا، بعض الضوء حول هذا الموضوع، لكن نستطيع أن نقول إن للغنوصيّين، إزاء السلطات المدنيّة، الموقف نفسه الذي كان لديها إزاء السلطات الكنسيّة. لكن، لا يمكن الاعتماد على نقد خصومهم، فحتى إن كان الغنوصيّون يحتقرون العالم، لكن هل بلغ ذلك حد احتقار السلطة الإمبراطورية؟ لسنا ندري.

هذه تساؤلات حقيقيّة، بقيت حتى اليوم بلا جواب، لأن عندنا مجرّد إشارات إلى سلطة العالم، ووصفًا سلبيًا لها في الأدبيات الغنوصيّة، حين يتكلمون عن الأراكنة وعن فاطر العالم وعن سادته.

ج- المرأة الغنوصيّة

قلنا إن الخصوم شدّدوا على الدور الاجتماعي للمرأة عند الغنوصيّين، ولكن إذا ما رفعنا جانب المماحكة الجدلية، قد تبدو لدينا صورة إيجابية عن مكانة المرأة ودورها في الجماعة. وقد يُعزى نجاح التبشير الغنوصيّ بين النساء إلى الإمكانيات التي كان الغنوصيّون يقدّمونها لها في نشاطات الجماعة، وهذا يشكّل شيئا مميّزًا بالنسبة إلى الديانات الأخرى في نهاية العالم القديم. فالمسيحية واليهودية وديانة (مِترا) كانت ديانات رجال فقط، ما عدا المانوية التي أعطت مكانة كبيرة للنساء.

أما النصوص المباشرة، فلا تعطينا معلومات واقعية حول هذا الموضوع، ولكن نقول إن للمرأة دورًا أساسيًا في قصصهم الميثولوجيّة، كما جاء في أسطورة صوفيا، (المذكورة في استعراضنا لفكر فالانتين)، كما تذكر اهتمام الغنوصيّين بموقف يسوع من المرأة. لذا جاء اهتمام الأدب الغنوصيّ بهن في بعض الكتابات، فأعطاهن امتيازًا في الوحي والمعتقد. وما أهمية المرأة في الأسطورة إلا إنعكاسًا لأهميتها داخل الجماعة.

د- مشكلة إدّعاء النخبوية

هل يجب التكتّم، أم نشر التعاليم لكل من هبّ ودبّ؟ هذا ما قسّم الغنوصيّين إلى قسمين: فمنهم جماعة شديدة التكتّم ومنهم من نادى بضرورة التبشير وكسب الأتباع. فإمّا التكتّم على الرسالة المخصصة لنخبة معيّنة منطوية على نفسها، وإمّا نشرها نحو الخارج. وذلك باتّباع أنموذج للحياة الأساسية والزهديّة، وعدم التساهل مع العالم، وبضرورة الديمومة لئلا يختفوا من الساحة.

وينقل إلينا المؤلفون الغنوصيّون هذه النظريات التي عصفت بجماعتهم، وشهدوا على وجود هذه التيّارات والتنوّع في التصرّف، فقامت بعض الإنقسامات بينهم. لذا نرى مؤلف " شهادة الحقيقة " ، يندّد ويناهض هؤلاء الغنوصيّين الذين يقبلون بالزواج والإنجاب: يقول إن هؤلاء هم تلاميذ سمعان السامري، وينادي بالعكس – بفصل تام

بين الرجل وبين تجارب هذا العالم التي يراها في الجنس والمال والروابط العائلية (ن.ح ٩/٣،٨،٥٨/١-١٣).

لكن الغنوصيّة لا تعرف هذا التمييز القاسي الذي مارسته المانوية بين طبقة "الكاملين" وطبقة "السامعين". وغاية السامعين هي أن يخدموا حاجات الكاملين المادية، وبإمكانهم أن يتزوجوا فيساعدوا بذلك على استمرار الجماعة.

وفي أغلبية النصوص الغنوصيّة المكتوبة، هناك أنموذج زهدي واضح: هل هذا هو السبب الذي أدى إلى عدم استمرار وانتشار الغنوصيّة، فلم تدم كما دامت المانوية (من القرن ٣م-١٣م)؟ أم قد تكون الإضطهادات هي التي قضت على الغنوصيّة في زمن مبكّر؟

أم لعلّ رفضهم دعوةَ سفر التكوين: "أنموا وأكثروا واملأوا الأرض" (٢٨/١) - التي رأى فيها الغنوصيّون فخًا -جعلهم من بين المنسيين في التاريخ.

القسم السادس

أنشودة الجوهرة

هل هي أنموذج على غنوصيّة سريانية؟

هناك دراسات عديدة، قامت منذ سنوات تقدم نصًا لنشيد سرياني[١٩]، يعود إلى القرن الثاني للميلاد، ولم تتوصل تلك الدراسات حتى اليوم إلى جواب قاطع حول الموضوع الذي تطرحه هذه الأنشودة. فقد جرى لها استعمالات عديدة، خصوصًا عندما أدرجت في كتاب "أعمال توما الرسول" الذي اعتمدته كنيسة المشرق، لذا لا يمكن الجزم أن هذه الأنشودة من الجماعات الغنوصية مباشرة، فهناك تفاسير عدّة وقراءات متباينة ممكنة لهذا النص نعرض ترجمته مع النص الأصلي السرياني ثم نعطي ثلاثة من أهم التفاسير التي تناولته:

(مدرشا دعل مرجنيت: مدراش المرجانة)

مدراش يهوذا توما الرسول في بلد الهنود	ܡܕܪܫܐ ܕܝܗܘܕܐ ܬܐܘܡܐ ܫܠܝܚܐ ܕܒܐܬܪܐ ܕܗܢܕܘܝܐ.
١- إذ كنت ولدًا طفلا أسكن في مملكة بيت أبي،	١. ܟܕ ܐܢܐ ܫܒܪ ܥܡܪ ܒܡܠܟܘܬܐ ܕܒܝܬ ܐܒܝ
٢- في ثراه وأطايب من كانوا يربوني آمنا،	٢. ܘܒܥܘܬܪܐ ܘܒܦܘܢܩܐ ܕܡܪܒܝܢܝ ܢܝܚ ܗܘܝܬ
٣- من المشرق، موطننا، زوّدني أهلي وأرسلوني	٣. ܡܢ ܡܕܢܚܐ ܒܝܬܢ ܙܘܕܘܢܝ ܐܒܗܝ ܫܕܪܘܢܝ
٤- ومن غنى كنزنا جهزوا لي حملا وفيرًا	٤. ܘܡܢ ܥܘܬܪܐ ܕܓܙܝܢܢ ܛܥܢܘ ܠܝ ܡܘܒܠܐ
٥- كبيرًا كان وخفيفًا بحيث يسعني أن أحمله وحدي	٥. ܪܒܐ ܗܘܐ ܘܩܠܝܠܐ ܕܐܢܐ ܒܠܚܘܕܝ ܐܫܩܠܝܗܝ
٦- ذهبا من بيت العليل، وفضة من كزخ الكبرى،	٦. ܕܗܒܐ ܗܘ ܕܒܝܬ ܥܠܝܐ ܘܣܐܡܐ ܕܓܙܟ ܪܒܬܐ
٧- وأحجارًا كريمة من الهند، وحلالا فاخرة من بيث قوشان،	٧. ܘܟܪܟܕܢܐ ܡܢ ܗܢܕܘ ܘܡܪܓܢܝܬܐ ܕܒܝܬ ܩܘܫܢ
٨- وجهزوني بماس يكسر الحديد،	٨. ܘܐܙܪܘܢܝ ܒܐܕܡܘܣ ܕܦܪܟ ܗܘ ܦܪܙܠܐ
٩- وألبسوني الحلة البهية (الزاهية)،	٩. ܘܐܫܠܚܘܢܝ ܙܗܝܘܬܐ

ܕܒܚܘܒܗܘܢ ܥܒܕܘ ܠܝ	التي صنعوها لي بحبهم،
١٠. ܘܫܠܚܘܢܝ ܕܐܪܓܘܢܐ	١٠- ونسجوا لي رداء أرجوانيا،
ܕܥܠ ܩܘܡܬܝ ܡܫܘܫܚ ܗܘܐ	بمقاس قامتي،
١١. ܘܥܒܕܘ ܥܡܝ ܫܘܕܥܢܐ	١١- وقطعوا معي عهدًا،
ܘܟܬܒܘܗܝ ܒܠܒܝ ܕܠܐ ܢܬܛܥܐ	وضعوه في قلبي لئلا يمحى:
١٢. ܕܐܢ ܬܚܘܬ ܠܡܨܪܝܢ	١٢- "إن أنتَ نزلت مصر،
ܘܬܝܬܐ ܠܡܪܓܢܝܬܐ {ܚܕܐ}	وجلبت الجوهرة الفريدة،
١٣. ܗܝ ܕܐܝܬܝܗ ܒܓܘ ܝܡܐ	١٣- التي هي وسط البحر، قرب
ܚܕܪܘܗܝ ܕܚܘܝܐ ܫܪܝܩܐ	الحية ذات الفحيح،
١٤. ܬܠܒܫܝܗ ܠܙܗܝܘܬܟ	١٤- عليك أن ترتدي الحلة البهية،
ܘܬܘܒܟ ܕܥܠܘܗ ܡܬܢܝܚ	وتلقى عليها الرداء الأرجواني،
١٥. ܘܥܡ ܐܚܘܟ ܬܪܝܢܢ	١٥- فتكون مع أخيك ثانينا، وارثًا
ܝܪܬܐ ܒܡܠܟܘܬܢ ܬܗܘܐ	في مملكتنا".
١٦. ܫܒܩܬ ܡܕܢܚܐ ܢܚܬܬ	١٦- تركت المشرق ونزلت، ومعي
ܟܕ ܥܡܝ ܬܪܝܢ ܦܪܘܓܝܢ	دليلان
١٧. ܕܐܘܪܚܐ ܕܚܝܠܐ ܘܥܛܠܐ	١٧- لأن الطريق مخيفة ووعرة، وأنا
ܘܐܢܐ ܛܠܐ ܐܢܐ ܠܡܪܕܝܗ	بعد طفل لكي أقطعها
١٨. ܥܒܪܬ ܬܚܘܡܝ ܡܝܫܢ	١٨- اجتزت حدود ميسان حيث
ܙܘܢ ܬܓܪܐ ܡܕܢܚܐ	متاجر المشرق
١٩. ܘܥܠܬ ܠܐܪܥ ܒܒܠ	١٩- حتى بلغت أرض بابل،

ودخلت أسوار سربج	ܘܥܠܠܬ ܠܫܘܪ̈ܝܗ ܕܣܪܒܘܓ
٢٠- وانحدرت إلى مصر، وانفصل عني من كان برفقتي،	٢٠. ܢܚܬܬ ܠܝ ܠܗ̇ ܠܡܨܪܝܢ ܘܦܪܫܘܢܝ ܗܢܘܢ ܕܥܡܝ
٢١- توجهت نحو الحية حالا، وشرعت أحوم حول مأواها	٢١. ܐܙܠܬ ܠܘܬ ܚܘܝܐ ܚܕܪܘܗܝ ܐܫܪܝܬ ܐܘܫܦܝ
٢٢- حتى تنام وترقد، فآخذ الجوهرة منها،	٢٢. ܥܕ ܢܢܘܡ ܘܢܕܡܟ {ܡܢܗ} ܠܡܪܓܢܝܬܐ ܐܫܩܘܠ
٢٣- ولأني كنت وحدي، معزولا، غريبًا عن رفاق نزلي،	٢٣. ܘܟܕ ܚܕ ܗܘܝܬ ܘܡܬܝܚܕ ܗܘܝܬ ܠܒܢܝ ܐܟܣܢܝ ܢܘܟܪܝ ܗܘܝܬ
٢٤- فرأيت هناك واحدا من بني جنسي، نبيلا من المشرق	٢٤. ܘܚܙܝܬ ܬܡܢ ܒܪ ܓܢܣܝ ܡܢ ܡܕܢܚܐ ܐܢܫ ܚܐܪܐ
٢٥- شابًا بهي الطلعة وسيمًا	٢٥. ܛܠܝܐ ܦܐܝܐ ܫܦܝܪܐ
٢٦ - إبن نبلاء (ممسوحًا)، إقترب وتعلق بي	٢٦. ܒܪ ܡܫܝܚܐ ܘܐܬܐ ܢܩܦ
٢٧- فجعلته صديقا حميما، أشركته رفيقًا في تجارتي،	٢٧. ܘܥܒܕܬܗ ܒܪ ܒܝܬܝ ܚܒܪܐ ܕܬܐܓܘܪܬܝ ܫܘܬܦܬܗ
٢٨- حذّرته من أهل مصر، ومن عشرة السيئين،	٢٨. ܙܗܪܬܗ ܡܢ ܡܨܪ̈ܝܐ ܘܡܢ ܫܘܬܦܘܬܗܘܢ ܕܛܢܦܐ
٢٩- لكنني ارتديت زيّهم كي أوقظ ريبتهم مني	٢٩. ܘܠܒܫܬ ܠܒܘܫܝܗܘܢ ܠܚܕܐ ܕܠܐ ܢܬܢܟܪܘܢ ܕܡܢ ܠܒܪ ܐܬܝܬ

٣٠. ܕܐܫܩܘܠ ܠܡܪܓܢܝܬܐ ܘܢܥܝܪܘܢ ܚܘܝܐ ܥܠܝ	٣٠- فأسلب الجوهرة، بلا أن ينبّهوا الحية ضدّي
٣١. ܘܟܐܒܐ ܡܢ ܒܠܒܠܬܐ ܢܘܟܪܝ ܕܠܐ ܗܘܝܬ ܒܪ ܡܬܗܘܢ	٣١- ولسبب ما شعروا أني لست إبن بلدهم
٣٢. ܘܥܠܘ ܥܡܝ ܒܢܟܠܝܗܘܢ ܐܦ ܐܛܥܡܘܢܝ ܡܐܟܘܠܬܗܘܢ	٣٢- فأحاطوني بأحابيلهم، وأطعموني طعامهم
٣٣. ܘܛܥܝܬ ܕܒܪ ܡܠܟܐ ܐܢܐ ܘܦܠܚܬ ܠܡܠܟܐ ܕܝܠܗܘܢ	٣٣- فنسيت أني ابن ملوك، وعملت لملكهم
٣٤. ܘܛܥܝܬ ܠܡܪܓܢܝܬܐ ܕܥܠܝܗ ܐܒܗܝ ܫܕܪܘܢܝ	٣٤- ونسيتُ الجوهرة التي من أجلها أرسلني أهلي
٣٥. ܒܝܘܩܪܐ ܕܛܘܥܡܗܘܢ ܢܚܬܬ ܒܫܢܬܐ ܥܡܝܩܬܐ	٣٥- ورقدت في سبات عميق، بتأثير من طعامهم
٣٦. ܘܟܠܗ ܗܠܝܢ ܕܓܕܫ ܐܒܗܝ ܪܓܫܘ ܘܚܫܘ ܥܠܝ	٣٦- لكنّ أهلي أحسوا بكل ما حصل لي، وتألموا بسببه
٣٧. ܘܐܬܩܪܝ ܒܡܠܟܘܬܢ ܕܟܠܢܫ ܠܬܪܥܢ ܢܗܠܟ	٣٧- فنودي في مملكتنا: إن كل من يطرق بابنا
٣٨. ܡܠܟܐ ܘܪܫܐ ܦܪܬܘ ܘܟܠ ܪܘܪܒܢܐ ܕܡܕܢܚܐ	٣٨- ملوكا أم رؤساء فرثيين وكل عظماء الشرق
٣٩. ܬܪܥܘ ܥܠܝ ܐܦܪܫܬܐ ܕܒܡܨܪܝܢ ܠܐ ܐܫܬܒܩ	٣٩- ووضعوا خطة في شأني: أن لا أبقى في مصر

٤٠. ܘܟܬܒܘ ܠܝ ܐܓܪܬܐ ܘܟܠ ܪܒ ܫܡܗ ܥܠܗ ܐܪܫܡ	٤٠– وبعثوا إلي برسالة، ختمها كلّ عظمائنا باسمه:
٤١. ܡܢ ܐܒܘܟ ܡܠܟ ܡܠܟܐ ܘܐܡܟ ܐܚܝܕܬ ܡܕܢܚܐ	٤١– "من أبيك، ملك الملوك، وأمك، سيدة الشرق
٤٢. ܘܡܢ ܐܚܘܟ ܬܪܝܢܢ ܠܟ ܒܪܢ ܕܒܡܨܪܝܢ ܫܠܡ	٤٢– ومن أخيك، ثانينا، إليك، يا إبننا الذي في مصر. سلام.
٤٣. ܢܥܘܪ ܘܩܘܡ ܠܟ ܡܢ ܫܢܬܟ ܘܡܠܐ ܕܐܓܪܬܢ ܫܡܥ	٤٣– إستيقظ وقم من نومك، واسمع كلمات رسالتنا،
٤٤. ܐܬܕܟܪ ܕܒܪ ܡܠܟܐ ܐܢܬ ܚܙܝ ܥܒܕܘܬܐ ܠܡܢ ܦܠܚܬ	٤٤– وتذكر أنك ابن ملوك، وانظر ما فعلت (بك) العبودية
٤٥. ܥܗܕܝܗ ܠܡܪܓܢܝܬܐ ܕܥܠܝܗ ܠܡܨܪܝܢ ܐܫܬܕܪܬ	٤٥– تذكر الجوهرة التي من أجلها انحدرت إلى مصر
٤٦. ܐܬܥܗܕ ܠܟܘܬܝܢܟ ܡܫܒܚܬܐ ܠܒܫܬ ܥܗܕ	٤٦– استعد حلتك البهية، وتذكر الرداء الأرجواني المهيب
٤٧. ܕܠܒܫܬ ܘܐܬܪܦܝܬ ܕܫܡܟ ܒܟܬܒܐ ܕܓܢܒܪܐ	٤٧– الذي لبسته وتزينت به، فاسمك في سفر الشجعان،
٤٨. ܘܥܡ ܐܚܘܟ ܡܫܠܡܢܐ ܒܡܠܟܘܬܢ ܬܗܘܐ	٤٨– لتكون مع أخيك، ولي العهد، وارثًا في مملكتنا".
٤٩. ܘܐܓܪܬܐ ܐܓܪܬܐ ܗܝ ܕܡܠܟܐ ܒܝܡܝܢܗ ܚܬܡ	٤٩– هذه الرسالة كانت لي، ختمها الملك بيمناه،

ܣܘܪܝܝܐ	العربية
٥٠. ܡܢ ܒܝܫܐ ܒܢܝ ܒܒܠ ܘܕܝܘܐ ܡܪܝܕܐ ܕܣܪܒܘܓ	٥٠- (لتحفظ) من الأشرار بني بابل، وأشرار سربج القساة
٥١. ܦܪܚܬ ܒܕܡܘܬ ܢܫܪܐ ܡܠܟܐ ܕܟܠ ܦܪܚܬܐ	٥١- طارت الرسالة كالنسر، ملك كل الطيور
٥٢. ܦܪܚܬ ܘܢܚܬܬ ܠܘܬܝ ܘܗܘܬ ܟܠܗ ܡܠܬܐ	٥٢- طارت وحطت بالقرب منّي، وتحوّلت إلى كلام
٥٣. ܠܩܠܗ ܘܠܩܠܐ ܪܚܫܗ ܥܝܪܐ ܘܩܡܬ ܡܢ ܫܢܬܝ	٥٣- فاستيقظتُ على جلبة صوتها وحركتها، قفزتُ وأفقتُ من نومي
٥٤. ܫܩܠܬܗ <ܠܗ> ܘܢܫܩܬܗ ܘܫܪܝܬ ܐܢܐ ܠܛܒܥܗ ܩܪܝܬ	٥٤- أخذتها وقبّلتها، فضضت أختامها وقرأتها،
٥٥. ܘܥܠ ܐܝܟ ܕܒܠܒܝ ܪܫܝܡ ܡܠܘܗܝ ܕܐܓܪܬܝ ܐܬܟܬܒ	٥٥- وكما كان مرسومًا في قلبي، كانت الكلمات مكتوبة في رسالتي،
٥٦. ܥܗܕܬ ܕܒܪ ܡܠܟܐ ܐܢܐ ܘܚܐܪܘܬܝ ܓܢܣܗ ܒܥܝܐ	٥٦- فتذكرت أني إبن ملوك، وأن حريّتي تؤكّدها طبيعتي
٥٧. ܥܗܕܬ ܠܡܪܓܢܝܬܐ ܕܥܠܝܗ ܠܡܨܪܝܢ ܐܫܬܕܪܬ	٥٧- تذكّرت الجوهرة، وأني من أجلها أرسلت إلى مصر.
٥٨. ܘܫܪܝܬ ܡܚܪܡ ܐܢܐ ܠܗ ܠܚܘܝܐ ܕܚܝܠܐ ܘܫܝܩܐ	٥٨- وشرعت أسحر الحية المخيفة ذات الفحيح
٥٩. ܐܪܕܡܬܗ ܘܐܫܢܬܗ ܘܫܡ ܐܒܝ ܥܠܘܗܝ ܐܬܕܟܪ	٥٩- أجبرتها على النوم والرقاد حين ذكرت عليها إسم أبي

٦٠- واسم ثانينا (أخي)، وأمي ملكة المشرق،	٦٠. ܘܫܡܗ ܕܬܪܝܢܢ ܘܐܡܝ ܡܠܟܬ ܡܕܢܚܐ
٦١- وخطفت الجوهرة منها، واتجهت عائدا إلى بيت أبي	٦١. ܚܛܦܬܗ ܠܡܪܓܢܝܬܐ ܘܗܦܟܬ ܕܐܙܠ ܠܒܝܬ ܐܒܝ
٦٢- وخلعت لباسهم النجس الدنس، وتركته في بلدهم	٦٢. ܠܒܘܫܗܘܢ ܛܢܦܐ ܘܨܐܝܐ ܫܠܚܬ ܘܫܒܩܬܗ ܒܐܬܪܗܘܢ
٦٣- ووجهت سيري لكي أبلغ نور موطننا المشرق،	٦٣. ܬܪܨܬ ܠܡܪܕܝܬܝ ܕܐܬܐ ܠܢܘܗܪܐ ܕܡܘܠܕܝ ܡܕܢܚܐ
٦٤- أما رسالتي التي أيقظتني، فقد كانت على الطريق أمامي من جديد،	٦٤. ܘܠܐܓܪܬܝ ܡܥܝܪܢܝܬܝ ܡܫܟܚ ܒܐܘܪܚܐ ܐܫܟܚܬ
٦٥- وكما أنها بصوتها أيقظتني، كانت بنورها تهديني،	٦٥. {ܐܝܟ} ܕܒܩܠܗ ܐܥܝܪܬܢܝ ܐܦ ܒܢܘܗܪܗ ܠܝ ܡܕܒܪܐ
٦٦- لأن حريرها الملوكي كان ببياضه يلمع أمامي،	٦٦. ܕܫܝܪܝܐ ܒܡܠܟܘܬܐ ܡܢܨܚ ܒܚܘܪܗ ܩܕܡܝ
٦٧- وبصوتها وهديها كانت تشجّع عزمي،	٦٧. ܘܒܩܠܗ ܘܒܕܘܒܪܗ ܐܦ ܠܣܘܚܬܝ ܡܓܪܓܐ
٦٨- وبحبّها كانت تجتذبني	٦٨. ܘܒܚܘܒܗ ܢܓܕܬ ܠܝ
٦٩- فخرجتُ، واجتزتُ سربج، وتركتُ بابل إلى يساري	٦٩. ܢܦܩܬ ܥܒܪܬ ܠܣܪܒܘܓ ܫܒܩܬ ܠܒܒܠ ܠܣܡܠܐ
٧٠- ووصلت ميسان العظمى، إلى	٧٠. ܘܡܛܝܬ ܠܡܝܫܢ ܪܒܬܐ

ܠܡܚܘܙܗܘܢ ܕܬܓܪܐ

٧١. ܕܒܣܦܪܗ ܕܝܡܐ ܝܬܒ

٧٢. ܘܠܬܘܣܒܬܝ ܕܫܠܚܬ ܗܘܝܬ

ܘܠܛܘܠܝ ܕܒܗ ܡܬܟܪܟܐ

٧٣. ܡܢ ܪܘܡܬܐ ܕܘܪܩܢ

ܠܬܡܢ ܐܒܘܗܝ ܫܕܪܘܗ

٧٤. ܒܐܝܕܝ ܓܙܒܪܝܗܘܢ

ܕܒܫܪܪܗܘܢ ܠܗܘܢ ܡܗܝܡܢܝܢ

٧٥. ܘܠܐ ܠܒܝ ܗܘܐ ܠܐܣܟܡܗ

ܕܫܒܩܬܗ ܒܛܠܝܘܬܗ ܒܝܬ ܐܒܐ

٧٦. ܡܢ ܫܠܝ ܟܕ ܐܩܒܠܬܗ

ܠܡܚܙܝܬܐ ܗܘܝܬܐ ܕܡܝܐ ܠܝ

٧٧. ܟܠܗ ܐܢܐ ܒܟܠܗ ܚܙܝܬ

ܘܐܦ ܐܢܐ ܟܠܗ ܒܗ ܐܩܒܠܬ

٧٨. ܕܗܘܝܢ ܬܪܝܢ ܒܦܘܪܫܢܐ

ܘܬܘܒ ܚܕ ܒܕܡܘܬܐ ܚܕܐ

٧٩. ܘܐܦ ܠܗܘܢ ܠܓܙܒܪܐ

ܕܠܝ ܐܝܬܝܘܗܝ ܗܟܢ ܚܙܝܬ

٨٠. ܕܗܘܝܢ ܗܘܘ ܬܪܝܢ ܕܡܘܬ ܚܕܐ

ܕܚܕ ܪܘܫܡܐ ܕܡܠܟܐ ܪܫܝܡ ܒܗܘܢ

ميناء التجار

٧١- الواقعة على ساحل البحر

٧٢- وحلّتي التي نزعتُ، والرداء الأرجواني الذي كنت أرتدي،

٧٣- من أعالي (رمثا) ورقان (هركانيا)، أرسلها أهلي إلى هناك

٧٤- بأيدي وكلائهم، لكي يتمّ تصديقهم.

٧٥- إذ أنني لم أعد أذكر ذلك، لأنّي منذ طفولتي تركت بيت أبي

٧٦- وفجأة، حين قابلتُ ثوبي، مثل مرآة كان الثوب يشبهني

٧٧- رأيتُه كاملا، وقبلت كل شيء فيه

٧٨- فقد كنا إثنين في انقسامنا، ونحن من جديد واحدًا في الشبه

٧٩- وحتى الوكلاء الذين أتوني بها رأيتهم هكذا

٨٠- كانا اثنين، فأصبحا شكلا واحدًا، فالواحد رمز الملك مرسوم

Syriac	Arabic
	عليهما
٨١. ܘܐܦܢܝܘ ܐܝܬܝܘ ܠܝ ܠܒܘܫܝ ܒܐܝܕܝ ܓܙܒܪ̈ܝܗܘܢ	٨١- وقد عاد إليّ على أيديهم، بيديه الخاصتين، وديعتي وثراي،
٨٢. ܟܬܘܢܐ ܡܨܒܬܐ ܒܓܘ̈ܢܐ ܝܐܝ̈ܐ ܡܫܒ̈ܚܐ	٨٢- حلّتي المزينة بألوان بهية
٨٣. ܒܕܗܒܐ ܘܒܒܪ̈ܘܠܐ ܘܡܪ̈ܓܢܝܬܐ ܘܫܒܙ̈ܘܬܐ	٨٣- بذهب وبلور، وأحجار كريمة وعقيق
٨٤. ܘܣܪ̈ܕܘܢܐ ܫܚܠܝܦ ܓܘܢ ܐܦ ܗܘ ܒܪܘܪܒܘܬ ܥܒܝܕܐ	٨٤- وياقوت مختلف الألوان، مصنوع ببالغ العظمة
٨٥. ܘܒܟܐܦ̈ܐ ܕܐܕܡܘܣ ܟܠܗ ܚܨ̈ܝܬܗ ܡܣܩܒܢ	٨٥- وبأحجار ماس، كانت أطرافها كلها مطرزة
٨٦. ܘܨܠܡܗ ܕܡܠܟ ܡܠܟ̈ܐ ܥܠ ܒܟܠܗ ܡܨܝܪ ܗܘܐ	٨٦- وصورة ملك الملوك كانت بارزة فوق حلتي كلها
٨٧. ܘܐܝܟ ܟܐܦܐ ܕܣܦܝܠܐ ܐܦ ܒܓܘ̈ܢܘܗܝ ܡܫܚܠܦܐ	٨٧- كحجر الفيروز كانت ألوانها متعدّدة
٨٨. ܘܚܙܝܬ ܬܘܒ ܕܒܟܠܗ ܙܘ̈ܥܐ ܕܝܕܥܬܐ ܙܝܥܐ	٨٨- رأيت فيها كلها خلجات المعرفة
٨٩. ܘܐܝܟ <ܗܘ> ܕܠܡܡܠܠܘ ܬܘܒ ܚܙܝܬܗ ܕܡܛܝܒܐ	٨٩- وكأنها تنطق، رايتها تستعد لذلك
٩٠. ܩܠܐ ܕܢܥܡ̈ܬܗ ܫܡܥܬ ܕܥܡ ܡܚܬܢܘܗ ܡܪܢܢܐ	٩٠- سمعت صوت نغماتها، وهي تتهامس مع من كان ينحدر بها

٩١- "لكي أكون أنشط من الخدم، إذ من أجل ذلك تربيت أمام أبي"	٩١. ܕܗܘ ܐܢܐ ܙܪܝܙ ܥܒ̈ܕܐ ܕܠܗ ܪܒܝܬ ܩܕܡܘܗܝ ܕܐܒܝ
٩٢- وكنت أنا أيضًا أشعر في داخلي بأن قامتي كأعمالها تكبر	٩٢. ܘܐܦ ܐܢܐ ܪܓܫܬ ܗܘܝܬ ܒܝ ܕܩܘܡܬܝ ܐܝܟ ܦܘܠܚܢܘܗܝ ܪܒܝܐ
٩٣- وبحركاتها الملوكية كانت تتقدم نحوي	٩٣. ܘܒܙܘܥܘܗܝ ܡܠܟ̈ܝܐ ܦܫܛܗ ܠܘܬܝ ܡܬܦܫܛܐ
٩٤- وبفضل واهبيها كانت تسرع إليّ كي آخذها	٩٤. ܘܒܐܝܕܐ ܕܡܘܗܒܢܗ ܡܣܬܪܗܒܐ ܐܝܟ ܕܐܣܒܝܗ
٩٥- يستحثني حبي أنا أيضًا، كي أسرع لملاقاتها وقبولها،	٩٥. ܘܐܦ ܠܝ ܚܘܒܝ ܐܥܝܩ ܗܘܐ ܕܐܪܗܛ ܠܐܘܪܥܗ ܘܐܩܒܠܝܗ
٩٦- فانبسطتْ وأمسكتُ بها، وبجمال ألوانها ارتضيتُ	٩٦. ܘܐܬܦܫܛܬ ܘܢܣܒܬܗ ܒܫܘܦܪܐ ܕܨܒ̈ܥܘܗ ܐܬܛܝܒܬ
٩٧- وبالرداء الزاهي الألوان كسوتُ ذاتي كليًا،	٩٧. ܘܒܐܣܛܠܝ ܕܙܗܝܐ ܓܘ̈ܢܐ ܟܠܝ ܠܟܠܗ ܐܬܟܣܝܬ
٩٨- إرتديتها فارتفعت نحو باب الخلاص والسجود	٩٨. ܐܬܥܛܦܬ ܒܗ ܘܐܬܥܠܝܬ ܠܬܪܥ ܫܠܡܐ ܘܣܓܕܬܐ
٩٩- أحنيت الرأس وسجدت لبهاء أبي الذي أرسلها إليّ	٩٩. ܪܟܢܬ ܪܫܝ ܘܣܓܕܬ ܠܗ ܠܙܝܘܗ ܕܐܒܝ ܕܠܝ ܫܕܪܗ
١٠٠- لأني عملت وصاياه، وهو أيضًا أتمّ ما وعد به	١٠٠. ܕܥܒܕܬ ܠܦܘܩܕܢܘܗܝ ܘܐܦ ܗܘ ܕܐܫܬܘܝ ܥܒܕ

١٠١. ܘܒܬܪܥܐ ܕܦܩܘܕܘܗܝ ܒܪܘܪܒܢܘܗܝ ܐܬܚܠܛܬ	١٠١– وانضممت إلى عظمائه عند باب الوزراء
١٠٢. ܚܕܝ ܒܝ ܘܩܒܠ ܠܝ ܘܗܘܝܬ ܒܡܠܟܘܬܗ ܥܡܗ	١٠٢– فرح بي وقبّلني، وكنت معه في ملكوته
١٠٣. ܘܒܩܠܐ ܕܫܘܒܚܐ ܟܠܗ ܚܝܠܘܗܝ ܠܗ ܡܫܒܚܝܢ	١٠٣– وبصوت الحمد كانت قواته جميعًا تسبحه
١٠٤. ܘܐܫܬܘܕܝ ܕܠܬܪܥܐ {ܐܦ ܠܘܬ} ܕܡܠܟ ܡܠܟܐ {ܥܡܗ} ܐܙܠ	١٠٤– فوعدني أني سأقف مجدًدا أمام باب ملك الملوك،
١٠٥. ܘܒܩܘܪܒܢܝ ܡܪܓܢܝܬܝ ܥܡܗ ܠܡܠܟܢ ܐܬܚܙܐ	١٠٥– سأقدّم قرباني وجوهرتي فأظهر أمام ملكنا، معه.
ܫܠܡ ܡܕܪܫܐ ܕܝܗܘܕܐ ܬܐܘܡܐ ܫܠܝܚܐ. ܕܐܡܪܗ ܒܝܬ ܐܣܝܪܐ ❖	انتهى نشيد يهوذا توما الذي تلاه في السجن.

الحــواشــي

١ لدينا إشارات قريبة من هذه التسمية لدى القديس بولس مثلا، الذي يحذر تلميذه طيموثاوس قائلا: "والروح صريح في قوله: إن بعض الناس يرتدّون عن الإيمان في الأزمنة الأخيرة، ويتبعون أرواحًا مضلّله وتعاليم شيطانية، لقوم مرائين كذّابين إكتوت ضمائرهم فماتت، ينهون عن الزواج وعن أنواع من الأطعمة خلقها الله ليتناولها ويحمده عليها الذين آمنوا وعرفوا الحق. فكل ما خلق الله حسن، فما من شيء يجب رفضه، بل يجب قبول كل شيء بحمد، لأن كلام الله والصلاة يقدسانه" (١ طيم ٤/١-٥).

٢ هاينس هالم، الغنوصيّة في الإسلام، منشورات الجمل، ترجمة رائد الباش كولونيا، ألمانيا ٢٠٠٣

٣ الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها، الخوري بولس الفغالي سلسلة: على هامش الكتاب، ١٥، الرابطة الكتابية، طبعة أولى ٢٠٠٩.

٤ نشر الخوري بولس الفغالي ترجمة النص الكامل لهذا الإنجيل المنحول في كتابه: "الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها"، سلسلة هلى هامش الكتاب، ١٥، الرابطة الكتابية، طبعة أولى ٢٠٠٩ ص ٢٢٠ - ٢٤٣.

٥ Stromates IV 81,1

٦ Advresus Haereses I, 24, 3-7, Stromates VII, 20-27

٧ Advresus Haereses I, 24, 4

٨ Advresus Haereses I, 24, 6

٩ بروس **Bruce** رحالة اسكتلندي شهير اكتشفه في مصر في عام ١٧٦٩. اقتناه المتحف البريطاني في عام ١٧٨٥، مكتوب بالقبطية الصعيدية بلهجة طيبة، ترجم إلى اللاتينية في عام ١٨٥١ في برلين على يد المستشرق الألماني شفارتس (M.-G. Schwartze)، وإلى الفرنسية على يد ميني (J.-P. Migne) ونشر في معجم الأسفار المنحولة في باريس في عام ١٨٥٦.

١٠ اكتشف في نجع حمادي/ مصر عام ١٩٤٦، وأثار الكثير من الأخذ والرد، وظن البعض أنه إنجيل خامس، وقال آخرون إنه أقدم الأناجيل كلّها. والواقع أنه وضع في سوريا باللغة القبطية خلال القرن الثاني الميلادي. تشير إلى ذلك قرابته من نصوص أخرى. مصادر عدة تتشابك فيه أحدها غنوصيّ، وهو الأحدث بينها على الأرجح، وجملة كلمات ذات روحية إنجيلية، إنما غير موجودة في الأناجيل الأربعة الرسمية، وقد يكون مصدرها النقل الشفهي. إنه مختارات من ١١٤ فقرة أو صورة من كلمات يسوع السرّية، وهنا يكمن طابعها الغنوصيّ كاملة في القبطية، ناقصة في اليونانية، وهو أقرب الأناجيل المنحولة إلى الأناجيل الرسمية. وعادة ما تبدأ فقراته بـ: قال يسوع، أو أجاب يسوع عن سؤال أحد تلاميذه.

١١ من كتاب (الكنيسة في الشرق/ الأناجيل المنحولة)، ترجمة اسكندر شديد، تقديم ومراجعة الأب جوزيف قزّي والأب الياس خليفة ١٩٩٩ دير سيدة النصر، ص١١: "الغنوصيّة حركة دينية فلسفية تقول بأن الخلاص يعتمد على المعرفة الكاملة والسرّية لله، لهذا هي خاصّة بالعارفين "العقّال" فقط الذين عليهم أن يتجرّدوا من الجسد ومن تعاطي المادة، لينصرفوا كليًة إلى المعرفة والتأمّل والهزيز الروحاني، الأناجيل الغنوصيّة، التي تحتوي على كلمات يسوع التي بمعرفتها وعيشها يكون الخلاص".

١٢ نشرت دار غاليمار سنة ١٩٨٧، بالفرنسية، كل المكتبة المنحولة لكتابات هذه الحقبة. وجاء هذا الكتاب في ١٩١٠ صفحة، واحتوى كل مكتبة قمران (٤٦٠ ص) ونصوص منحولة من العهد القديم مثل أسفار احنوخ، واليوبيل، ووصايا الآباء الإثني عشر، ومزامير سليمان، ووصيّة موسى، واستشهاد أشعيا، وكشوفات سيبلينيوس، ورؤيا باروخ اليوناني، وأسرار باروخ، وسفر عزرا الرابع، ورؤيا باروخ السرياني، ووصيّة أيوب، ووصيّة إبراهيم، ورؤيا إيليا...

La Bible, les écrits intertestamentaires, coll. La Bibliothèque de la Pléiade, Gallimard, Paris 1987

١٣ بهذه النقطة يلتقي الغنوصيّ باللاإدري (Agnostique)الذي يقول إن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها، لكن لا علاقة بينهما وبين تيار اللاهوت الإنكاري (apophatique) الذي هو أحد فروع اللاهوت ويعتمد منطق البراهين ال سلبية في تقصّي

المعرفة، أي نستبعد عن الموضوع ما ليس هو، فنقترب هكذا من حقيقته وهذا التيار ينتسب إلى دينيسيوس الأريوفاغي (القرنين ٥ و٦م).

١٤ لدى الصابئة تقليد مفاده أن المدنف يلقّن كلمة سر تساعده على اختراق طبقات الجلَد قبل أن يصل إلى السماء، وفي بعض الأحيان يوضع إناء ماء قرب النافذة، لتتعمّد فيه الروح وتعبر إلى موطنها ويسمى "زوادة الروح" le viatique de l'âme. (راجع

Rudolph, Kurt, La religion mandéenne, in: Encyclopedie de la Pléiade, Histoire des Religions 2, Religions du salut (monde mediterranéen et Proch-Orient) Relgions constituées (Occident) p. 509s).

١٥ تعليمات سفرة الروح وما تحتاج إليه من تعاويذ ووسائل أدب قديم جدًا قدم الحضارة الإنسانية، وكان للمصريين القدامى فيها باع كبير، بنيت عليها جوانب كثيرة من حضارتهم فكان لديهم كتاب خاص هو أشهر كتبهم أي "كتاب الأموات" وفيه تلك الكلمات هي ضمان الحياة ما بعد الموت.

١٦ هناك تشابه واضح بين ما تفعله الروح في سفرة العودة إلى السماء، وبين تمثيلية الغياسا (لص اليمين) التي تقام في عشيّة عيد القيامة في كنيسة المشرق يوم سبت النور، والتي فيها يقدّم اللص العابر إلى الفردوس، الذي وعده المسيح به الخلاص بحسب الإنجيل (لو ٤٣/٢٣)، مفتاح العبور وهو الصليب، وبرغم الإختلاف الواضح في اللاهوت إلا أن بين الفكرتين تشابهًا.

١٧ في الترجمة العربية هذه الجملة تحمل رقم ١١٢. وتقول: "قال يسوع من يشرب من فمي يصبح مثلي، أما أنا فأصبح ما هو، وما هو مخبوء يكشف له".

١٨ Elaine Pagels, "The Demiurge and his Archons", In, Theological Review, 69/3-4/1976, Harvard (USA) p.301-324.

١٩ قام الأب ماهر كوريال بنشر ترجمة هذه الأنشودة في كتاب "أعمال توما"، وراجعها الأب يوسف حبي، من منشورات كليّة بابل للفلسفة واللاهوت، المركز الثقافي ٣، بغداد ١٩٩٦. ص ١٦-٣٠، وسمح لنا مشكورا بنشرها لكننا اضفنا النص السرياني الأصلي مع إجراء تنقيح في نص الترجمة (الأب يوسف توما).

مطبوعات لجنة نشر الكتب الدينية
المكوّنة من آباء دومنيكان وكرمليين
من عام (١٩٨٢ـ ١٩٨٩)

١- هل كان يسوع سياسيا؟	تأليف الأب عبد السلام حلوة	١٩٨٢
٢- المسيحيون الأولون	ترجمة الأب البير أبونا	١٩٨٢
٣- يسوع صديقي	ترجمة الأب البير أبونا	١٩٨٢
٤- القداس الكلداني	تأليف الأب جاك اسحق	١٩٨٢
٥- أخبار نفس	تعريب الأب البير ابونا	١٩٨٣
٦- براعم نور	إعداد الأب يوسف حبي	١٩٨٣
٧- إن كنت تبحث عن اللـه	ترجمة الأب يوسف توما	١٩٨٣
٨- المسيح الحي	ترجمة الأب يوحنا عيسى	١٩٨٤
٩- دليل الزواج المسيحي	تأليف الأب يوسف عتيشا	١٩٨٤
١٠- علمنا أن نصلي	إعداد الأب البير أبونا	١٩٨٤
١١- الأسرار ينابيع الحياة	تأليف الأب يوسف عتيشا	١٩٨٤
١٢- اليزابيت الثالوث	تأليف الأب البير ابونا	١٩٨٥
١٣- العذراء مريم	ترجمة الأب البير أبونا	١٩٨٥
١٤- شهداء المشرق (١)	إعداد الأب البير أبونا	١٩٨٥
١٥- مجال للـه	الأب يوحنا عيسى	١٩٨٦
١٦- بحثت ووجدت	ترجمة الأب جرجس القس موسى	١٩٨٦
١٧- أقوال يسوع	ترجمة الأب يوحنا عيسى	١٩٨٦
١٨- تريزا أم الفقراء	إعداد الأب البير ابونا	١٩٨٧
١٩- أسيرٌ مع يسوع	ترجمة الأب البير ابونا	١٩٨٧
٢٠- إيماننا المسيحي	إعداد الأبوين البير ابونا ويوسف عتيشا	١٩٨٧
٢١- الصلاة في الحياة	إعداد الأب البير ابونا	١٩٨٩
٢٢- أمثال يسوع	إعداد الأبوين يوحنا عيسى والبير ابونا	١٩٨٩

منشورات مكتبة الناصرة (النور سابقًا)
للآباء الدومنيكان في العراق
من عام (١٩٧٩-)

٢٣- يقظة الإيمان	تأليف الأب يوسف عتيشا	١٩٧٩
٢٤- وعي الإيمان	الأبوين ألبير أبونا ويوسف عتيشا	١٩٨١
٢٥- مع يوحنا على درب الصليب	إعداد الأب يوسف توما	١٩٨٤
٢٦- لوّن معي حياة يسوع (١)	إعداد الأب يوسف توما	١٩٨٤
٢٧- لوّن معي حياة يسوع (٢)	إعداد الأب يوسف توما	١٩٨٤
٢٨- همسات أبو فادي	تأليف الأب جرجس القس موسى	١٩٨٥

٢٩-	يسوع نوري وحياتي	تأليف الأب يوسف عتيشا	١٩٨٥
٣٠-	تأريخ الكنيسة الشرقية ط ٢	تأليف الأب البير ابونا	١٩٨٥
٣١-	تاريخ الرهاوي المجهول	ترجمة الأب البير ابونا	١٩٨٦
٣٢-	دراسات إنجيلية	تأليف الأب يوسف حبي	١٩٨٨
٣٣-	كنيسة المشرق	الأب يوسف حبي	١٩٨٩
٣٤-	الخلق والتطور	ترجمة باسيل قوزي	١٩٨٩
٣٥-	أنيروا مصابيحكم	ترجمة الأب البير أبونا	١٩٩٠
٣٦-	حياة مريم العذراء في صور	ترجمة عادل دنو بابير	١٩٩١
٣٧-	ظل يسوع الجليلي	ترجمة الأب البير ابونا	١٩٩١
٣٨-	العماذ المسيحي	تأليف الآباء: لويس ساكو، يوسف توما ويوسف عتيشا	١٩٩١
٣٩-	حياة القديس بولس في صور	ترجمة نوئيل فرمان	١٩٩٢
٤٠-	البشارة حسب القديس لوقا	ترجمة الأب يوسف عتيشا	١٩٩٤
٤١-	حياة شارل دي فوكو في صور	ترجمة وإعداد نوئيل فرمان	١٩٩٤
٤٢-	حياة القديسة ريتا في صور	ترجمة وإعداد نوئيل فرمان	١٩٩٤
٤٣-	الآثار المسيحية في الموصل	ترجمة نجيب قلقو مراجعة الأب البير ابونا	١٩٩٤
٤٤-	حياة يسوع المسيح في صور	إعداد نوئيل فرمان	١٩٩٧
٤٥-	البروتستانت والإنجيليون في العراق	تأليف حارث يوسف غنيمة	١٩٩٨
٤٦-	اللاهوت العقائدي (للدورة اللاهوتية)، (الله، الكنيسة، المسيح).	تأليف الأب يوسف توما مرقس	٢٠٠٠
٤٧-	كتاب التناول الأوّل	تأليف الأب يوسف عتيشا	٢٠٠٢
٤٨-	أبت هذه مشكلتي	الأبوين عبد السلام حلوة ويوسف توما، إعداد وتقديم ظافر نوح كيخوا	٢٠٠٤
٤٩-	يا رب: إنّ الذي تحبّه مريض	ترجمة الأب يوسف توما	٢٠٠٤
٥٠-	هل ستفنى هذه الأمّة؟	الأب جوزيف نعيم، ترجمة نافع توسا	٢٠٠٦
٥١-	أدعوكم أحبائي	تيموتي رادكليف ترجمة الأخت سانت إتيين	٢٠٠٦
٥٢-	حصاد العمر	تاليف الأب يوسف عتيشا	٢٠٠٦
٥٣-	المسيحيون الآشوريون- الكلدان في تركيا الشرقية وإيران والعراق (أطلس خرائط)	تأليف الأب د. ساندرس، ترجمة نافع توسا، مراجعة وتحقيق الأب د. يوسف توما	٢٠٠٧
٥٤-	التأمل، حضور الله والذات	ترجمة الأب يوسف توما	٢٠٠٨
٥٥-	الغنوصيّة	تأليف ألأب د. يوسف توما	٢٠١٠

تفاسير مختلفة بشأن "أنشودة الجوهرة":

التفسير الأول: يعدّ النص مسيحيًا صالحًا، أي نابعًا من الكنيسة الشاملة:

أعطى بعض المفسرين رأيين عن مسيحيّة أنشودة الجوهرة، فقال أصحاب الرأي الأول إنّ هذا الأمير هو المسيح، ورأوا في نزوله تجسّده كما قرأوا فيه رمز المخلص الذي أرسله الآب كي ينقذ الروح التي تتمثل في الجوهرة.

أما الرأي الآخر فيرى في الأمير الإنسان نفسه، عندما يتعرّف صورته ومصيره مع البشرية جمعاء، وهذا التفسير الأخير هو الذي ساد في الكتابات اللاحقة، فاعتمده نيسيتاس السالونيقي Nicetas، الذي رأى في الرسول توما رمزًا للبشرية، وهو يصف، تحت شكل الأمثال، مجموع تاريخ الخلاص العام والفردي. إنطلاقًا من الأصول النبيلة لكل واحد حتى عودته في المستقبل، وما هو وراء السقطة والخطيئة ونتائجهما. إنّ قراءة " أنشودة الجوهرة" تمرّ إذن عبر رسالة مكتوبة في قلب الإنسان يعقبها سقوط.

التفسير المانوي

لم تقع أيدي الباحثين على أي تفسير مانوي لهذه القصة، لكن يمكن بالمقارنة محاولة قراءتها من منظورهم، إذ إنّ من المحتمل أن يكون المانويون قد دخلوا في إطار ما تطرحه " أنشودة الجوهرة" . وقد تبيّن ذلك من خلال دراسات عديدة وفي ضوء ما جاء عن حياة ماني باليونانية والتي اكتشفت ضمن مخطوطات كولونيا. هكذا تكون " أنشودة الجوهرة" قريبة جدًا من المانويين، فيرون فيها تفسيرًا لصورة معلّمهم "ماني" ورسالته. وقد قام بول هوبير بوارييه Poirier Paul-Hubert الأستاذ في جامعة لافال - كويبيك في كندا، بكتابة أطروحة في عام ١٩٨١ قدّمها إلى جامعة لوفان الجديدة في بلجيكا وجاءت في ٣٤٣ صفحة، بيّن فيها من خلال المقارنة أن في الإمكان قراءة هذا النص بطريقة مانويّة، على شرط أن يعاد اعتبار ما كان للمانويين

من ممارسات ومطالعات، فما جاء في " أنشودة الجوهرة" ليس غريبًا عنهم، خصوصًا إذا كانت أفكارها تبرز جانبًا من جوانب إيمانهم ومعتقداتهم. فلم يكن مستحيلا أن يكون المانويون قد أعطوا لهذه الأنشودة تفسيرًا آخر يختلف عن ما هو في مخطوطة " دفاتر كولونيا " . مثلا، قد لا يرون في الأمير الساقط شخص " ماني " نفسه، وإنما رأوا مصير الإنسان الأوّل الذي أرسله الآب كي ينتصر على الظلمة، وهذا تفسير يتلاءَم تمامًا مع التفسير المسيحي ومع الفكر المانوي على السواء.

يقول بول هوبير بواربيه: " يستنتج من تحليل هذه الأنشودة أننا أمام قطعة أدبية تستوحي الأدب الشعبي، فهي من خلال أشخاصها تضع على المسرح أمراء وملوكًا وحيّة. ومن يبحث متتبّعًا سياق هذه القصة، وحتى مكانة العجيب والمدهش فيها - كالرسالة التي تطير، وكالثوب الذي يكبر وينمو ويتكلم - تجعلنا نعزوها إلى عالم الخرافة أو إلى الحكاية الشعبية. لكن لا بدّ من الإقرار أن صياغات لاحقة أسهمت في إعطاء هذا النص شكلاً أكثر أدبيًا، وهذا أمر كبير الإحتمال، لذا يمكن التساؤل:

- كيف تعامل قراء نص " أنشودة الجوهرة" ، وكيف استعملوه؟

- كيف فهموا معناه، وهل قرئ حرفيًا في المعنى الأوّل؟ أم رأوا فيه معنى شموليًا عامًا ومجازيًا؟

إذا ما حاولنا الدخول في دراسة تفصيلية وحللنا هذه الأنشودة، بحسب ما جاء ذكره لدى (نيسيتاس السالونيقي)، يمكن الإعتقاد بقوّة أن الذين قرءوا أعمال توما - أي الكتاب الذي احتوى " أنشودة الجوهرة" - كانوا يقرؤونه في إطار إجتماعي وعقائدي فذلك يمكن أن يعطيهم مفتاح التفسير، ويساعدهم أن يستعينوا بهذه الأنشودة ضمن إطار نظامهم الفكري الخاص، فكان هذا بالنسبة إليهم مهمًا جدًا، وعلينا أيضًا - من خلالهم - أن نكتشف أبعاد هذه التفاسير العديدة، لأنّ بالتأكيد هنالك نصوص أخرى تسمح بذلك، إلى جانب تحليل هذه الأنشودة أيضًا " . (صفحة ٢١٠).

التفسير الغنوصي

لدينا تفاسير غنوصية عديدة لأنشودة الجوهرة، فبعض جوانب هذا النشيد تنطبق على ما تقوله الغنوصية، لذا إستنتجوا أن كتاب " أعمال توما " قد يكون تناقلته أوساط غنوصية. هناك أولا الإطار العام لأنشودة الجوهرة ومفهوم نزول الأمير وصعود، وهذا يتطابق تمامًا مع قراءة غنوصية للأنشودة، كذلك نزول المخلص وصعوده، ومفهوم " الكاشف الغنوصي " أو الروح أو الأنا والعودة إلى الملء الذي خرج منه.

من ناحية أخرى هنالك في أنشودة الجوهرة ، مفهوم " التعرّف " وجمع " الأنا " المبعثر، وهذا يحتل مكانًا كبيرًا جدًا لدى الغنوصيين، ويقترب بالطريقة نفسها مع مفهوم التوأم الذي في " أعمال توما " . وقد مال الباحث هنري شارل بويش Puech جدًا إلى هذا التفسير (ومن بعده جاك مينار Menard، وحاول أن يبيّن، على أثر بيترسون أن غاية " أنشودة الجوهرة" هي إعطاء مفهوم لخلاص الروح بواسطة النفس، وعودة الإنسان إلى حالته الأولى والكاملة.

على أثر دراسات قام بها جميع المهتمين بالغنوصية السريانية بصورة عامة وبأنشودة الجوهرة خصوصًا، يظهر أن تحديد النص وكذلك الوسط الأصلي الذي كتب فيه، والمعاني التي أعطيت له من الذين قرأوه منذ البداية، لا يسمح أبدًا إعطاء جواب قاطع حول نسبة الأنشودة إلى الغنوصية فقط. إذ يبدو أن الغنوصية السريانية، لم تحضَ بما يكفي من الدراسة، وينبغي أن تستكمل بدراسة التقاليد والقصص والأساطير المنسوبة إلى توما الرسول بصورة عامة، وإلى مسيحية المشرق التي انطلقت من بلاد ما بين النهرين عمومًا ومن منطقة الرها خصوصًا، ومدى علاقة هذه مع الثقافات المحيطة والتيارات التي تطوّرت لاحقًا بشكل متواز معها، مثل أشكال أخرى من الغنوصية والمانوية والمندائية وغيرها. كلّ هذه الإتجاهات نقرأ لها آثارًا في أنشودة الجوهرة، ونلمس تقاطع أفكار عديدة يجعلنا نخلص إلى القول: إنّ مجال البحث في الغنوصيّة لا يزال مفتوحًا.

المصادر:

The Nag Hammadi Library in English, James M. Robinson, Director, Leiden, E. J. Brill 1977.

Madeleine Scopello: les Gnostiques, Cerf/Fides, 1991 Paris.

M. Tardieu & J.-D. Dubois, Introduction a la littérature gnostique, Collections retrouvées avant 1945, Paris 1986.

Ménard, Jacques, E.: l'Evangile selon Thomas, Brill, Leiden, 1975.

Philippe de Suarez, l'Evangile selon Thomas, Ed. Métanoia, Montélimar, 1975.

H.C. Puech, En quête de Gnose, I, La Gnose et le temps, Paris, 1978, II, Sur l'Evangile selon Thomas, Paris, 1978.

Larousse littéraire: Gnose, Gnostiques.

Elaine Pagels, Beyond Belief, The Secret Gospel of Thomas, Vintage Books, New York, 2003

Eliane Pagels, The Gnostic Gospels, New York, 2006.

Rudolph, Kurt, La religion mandéenne, in: Encyclopedie de la Pléiade, Histoire des Religions 2, Religions du salut (monde mediterranéen et Proche-Orient) Relgions constituées (Occident) p. 498 – 522.

Jean Doresse, La Gnose in: Encyclopedie de la Pléiade, Histoire des Religions 2, Religions du salut (monde mediterranéen et Proche-Orient) Relgions constituées (Occident) p. 364 – 429.

المصادر بالعربية

اميل برهييه، تاريخ الفلسفة، الجزء الثاني: الفلسفة الهلنستيّة والرومانيّة. ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة/ بيروت ١٩٨٢ ص ٣٠٥-٣١٢

فراس السواح، " الوجه الآخر للمسيح - موقف يسوع من اليهود واليهودية وإله العهد القديم ومقدّمة في المسيحية الغنوصية (دمشق، سوريا ٢٠٠٤ من ص ٥٩-٩٦).

الأناجيل المنحولة، ترجمة اسكندر شديد، تقديم ومراجعة أ. جوزف قزي - ألياس خليفة، سلسلة " الكنيسة في الشرق ٨" ، دير سيدة النصر نسيية - غوسطا ١٩٩٩

الرؤى المنحولة، ترجمة اسكندر شديد، تقديم ومراجعة أ. جوزف قزي -ألياس خليفة، سلسلة " الكنيسة في الشرق ١٠" ، دير سيدة النصر نسيية -غوسطا ١٩٩٩

الأعمال والرسائل المنحولة، ترجمة اسكندر شديد، تقديم ومراجعة أ. جوزف قزي - ألياس خليفة، سلسلة " الكنيسة في الشرق ٩" ، دير سيدة النصر نسيية -غوسطا ١٩٩٩

هاينس هالم، الغنوصية في الإسلام، ترجمة رائد الباش، مراجعة: د. سالمة صالح، منشورات الجمل. ٢٠٠٣، كولونيا ألمانيا.

الخوري بولس الفغالي، الحركة الغنوصية في أفكارها ووثائقها، سلسلة على هامش الكتاب، ١٥، الرابطة الكتابية، طبعة أولى ٢٠٠٩ .

الفهرس

هذا الكتاب...

عندما اكتشف محمد السمّان في عام ١٩٤٥، القروي الصعيدي المصري من محافظة قنا، عن طريق الصدفة، جرّة مطمورة في الأرض أخذها إلى بيته وكسرها فوجد فيها مجموعة من الكتب القديمة، فأخذت زوجته تستعملها وقودًا في التنور لتخبز بها، ولم يسلم من المجموعة الكبيرة سوى ١٣ دفترًا أصبحت اليوم تعرف في أنحاء العالم وتعد من أشهر مكتشفات القرن العشرين، إنها (مكتبة نجع حمادي) الغنوصية.

بدأ العلماء بدراسة "الغنوصيين" أخيرًا، إنطلاقًا من مصادرهم، فأغلب كتبهم انقرضت معهم في حوالي القرن ٧ للميلاد. لكنهم بقوا بين حلقات الباحثين والعلماء، حتى قفزوا فجأة إلى واجهة الإهتمام الإعلامي، وذلك بفضل لجوء الكاتب البريطاني دان براون إلى تلك المخطوطات ليبني عليها روايته الشهيرة: "شيفرة دافنشي" (٢٠٠٣)، التي سرعان ما ترجمت إلى أكثر من ٥٠ لغة وبيع منها أكثر من ٢٠ مليون نسخة. وسال من الحبر ما سال، بين من صدّق بالرواية أو من وقف ضدّها، لكن كان من الضرورة أن يأتي موقف ينطلق من مصادر تعود إلى كتب الغوصيين الأصلية، كي توضع النقاط على الحروف، وهنا بين يديك - عزيزي القارئ - واحد منها، يقول لك عن ماهية الغنوصية وتلافيفها وتشعباتها، وذلك خارجًا عن كل طابع روائي أو خيالي.

لقد فتحت إكتشافات قرية "نجع حمادي" (التي تبعد ١٢٧ إلى الشمال من الأقصر في مصر)، الباب لمعرفة أوسع بمعتقدات الغنوصيين مباشرة، وهذا الكتاب يستقي كثيرًا من تلك النصوص الأصليّة. فيقدم خطوطا عريضة لمعرفتهم فيبدّد ما أثارته مخيلة الروائيين عند بعض الناس من خلط في الأمور، عن تلك الحقبة من بداية المسيحية، فهذا التيار الفكري، واسع جدًا، إمتد حتى وصل الصين ومنغوليا شرقًا وفرنسا وبلغاريا غربًا عبورًا بشمال أفريقيا، واستقت منه اليهودية والمسيحية والإسلام لاحقًا.

أملنا اليوم أن يقوم من يهتم بهذا التيار، فيواصل العمل، ويربط بين هذا الفكر الشرقي، الذي تفاعل مع فلسفة الإغريق والديانات التوحيدية، ولم يتوفق دائمًا في التوازن، لعلّه لأن طابع السلبية والحزن ساد عليه، أو لأنه لم يتمكن من سبر أغوار القلق الديني فغاص في الشعور بالعزلة والغربة وكره الكون وما فيه...

الأب د. يوسف توما مرقس



منشورات مجلة الفكر المسيحي

5000

شركة الأطلس للطباعة المحدودة بغداد - العراق ٢٠١٠